

شكرا لمن رفع الكتاب على الشبكة، قمنا بتنسيق الكتاب وتخفيض حجمه
مكتبة فلسطين للكتب المصورة
<https://palstinebooks.blogspot.com>

الكتور صلاح الدين المنجد

بين
انجلاء وانجلاء
في العصر العباسي

دار الحياة

بيروت

١٩٥٧

٢٢٩٥

الدكتور صلاح الدين المنجد

بين
الانحفاء والانجلاء
في العصر العباسي

دار الحياة

بيروت

١٩٥٧

تمهيد

لم يدرس العصر العباسي حتى اليوم دراسة دقيقة مفصلة، ترى فيها معالنه واضحة . وجل الدراسات التي بين ايدينا تدور حول التاريخ السياسي . اما التاريخ الحضاري ، وحياء الطبقات الاجتماعية ، فما يزال خطوطا عامة تحتاج الى كثير من التوضيح والتفصيل .

وكنا عنينا بهذا الامر من قبل ، يوم اصدرنا كتابا عن « الظرفاء والشحاذين » في العصر العباسي .

وما نشك ان الخلفاء العباسيين اثروا الى حد بعيد في المجتمع الاسلامي ووجهوه ، فقد كانوا مثالا تحذو حذوهم الطبقات الاجتماعية المختلفة ، وتقلدهم في الكثير من سيرتهم وملابسهم ومطاعمهم ومجونهم ومبازلهم . فكان لا بد من توضيح اطراف من حياتهم الخاصة لنذكر الاثر الذي تركوه في الشعب .

وسيجد القارئ في هذه الصفحات صورا جديدة عن حياة « الخلفاء والخلفاء » وغيرهم ، سلخنا طويلا في ضمها بعد ان كانت موادها متناثرة ، ينعكس فيها ازدهار الحضارة ، وما بلغته من رقي ورفيف .

فاذا استطاعت هذه الصور ان تسهم في تأريخ الحضارة العربية في عصر كان من اغنى وأعنف عصور تاريخنا ، فقد بلغنا ما هدفنا اليه .

صلاح الدين المنجد

حكومة النساء لدى الخلفاء

يقول « دوفيل » في كتابه عن الامبراطورة جوزفين (١) :
« ان من النساء من اوتين الميل الى الحكم والرغبة فيه ، رغم
مافيه من مشاق ومتاعب . لانهن لايرين في شيء من الاشياء
مستحيلا . فتلك ظاهرة ، في طبيعهن وغريزتهن ، فهن يرغبن
في الاحاطة بكل شيء علما ، وعرفان ماتحته وما فوقه ، ليتممن
النقص الذي فيهن . فهن يحكمن عشاقهن . فاذا اخطأهن
ما املن ، حكمن ازواجهن واولادهن . ثم تعدين ذلك الى
حكم صواحبهن ، فاذا وجدن المجال ذا سعة ، وكن ممن يلود
بالمملك والامراء والوزراء ، سولت لهن انفسهن ان يحكمن
الرعية ويدبرن امورها . »

اما حكمهن العشاق ، فأمر لاريب فيه . فهن في اغلب
الاحايين عابثات بالقلوب ، لاعبات بالالباب . اما حكمهن
الازواج فأمر كثير الوقوع وندر أن تجد امرأة لاتحكم زوجها .
ولكن حكمهن العباد ، وتصريفهن الامور ، وتديبرهن الملك قد

تبدو مستحيلة لاتقع ، بعيدة لاتنال . على ان لجاجة النساء لاتوصف والجاههن لايدرك ، ثم هن لايعرفن المستحيل . وفي التاريخ الاسلامي الوان من البرهانات ، تدل على حكمهن . وسأسوق الادلة من بدء العصر العباسي الى منتصف القرن الرابع .

وقبل ان ابدا ، اذكر ان الجاحظ قد لاحظ بعض هذا ، فقال : « انه لم يزل للملوك اماء يختلفن في الحوائج ، ويدخلن في الدواوين ، ونساء يجلسن للناس » . فيدللن ما صعب وينلن ما بعد . على ان سلطانهن كان على قدر مبلغ سحرهن ونفوذ اثرهن وتملكهن قلوب الخلفاء . وواضح ان تحكمهن يكون على قدر ضعف الخليفة ورقة عقله وانقياده . ولذلك تجد ان بعضهم تركوا لهن الامر كله ، وان بعضهم سايروهن مرة وغاضبوهن مرة ، وآخرون لم يحفلوا بهن ابدا .

فالسفاح ، ابتعد عن النساء ، فلم يرغب فيهن للمذاته بله استشاراته . وحاول خالد بن صفوان ان يثير شهواته مرة بذكر الجواري واوصافهن ليفريه بشرائهن ، فلم يفلح . وكان يقول : « العجب ممن يترك ان يزداد علما ، ويختار ان يزداد جهلا ! »

فسئل : ماتاويل ذلك ؟

قال : يترك مجالسه مثلك ومثل اصحابك ، ويدخل الى امرأة فلا يزال يسمع سخفا ويروي نقصا !

على ان المنصور كان الين منه ، واندى سمعا للنساء .
تزوج ابنة منصور الحميرية ، فشرطت عليه ان لايتزوج ولا
يتسرى الا عن امرها ، ففعل . ولم يتعد سلطانها زوجها . (١)
وبدا سلطان المرأة يقوى مذ تولى المهدي الخلافة ، وتزوج
الخيزران . فقد كان لها سلطان على القصر ، والندماء والحجاب
والاطباء ، تقرب منهم من تشاء وتبعد من تشاء . ولقد اخذت
مرة في مناكدة بختيشوع بن جورجيس الطبيب ومضاربه ،
واثرت في المهدي ، فلم ير بدا من اعادته الى جند يسابور . (٢)
فلما ولي الخلافة الهادي ، زاد نفوذ الخيزران وتدخلها في
شؤون الدولة . وقد كان الهادي يتناول المسكر ، ويلعب
ويلهو ، ويركب حمارا فارها ، ولا يقيم للخلافة ابهة ولا عظمة
فلا عجب ممن كان هذا شأنه ان وكل امور الدولة كلها الى
امه الخيزران ، فكان كثير الطاعة لها يجيبها فيما تسأل من
الحوائج . فكانت المواكب لا تخلو من بابها . وبلغ الامر بها
ان استولت على زمام الامور .

واستيقظ الهادي من غفوته او غفلته ، وراى ان امور الدولة
بين يدي امه . فكلمته ذات يوم في امر ، فلم يجد الى اجابتها
سبيلا فاعتل بعلة ، فقالت : لا بد من اجابتي !

قال : لا افعل !

(١) العقد الفريد ، ج ٣ ، ٢٠٠

(٢) اخبار الحكماء للقفطي ، ص ١٠١

قالت : اذا لاسالك حاجة ابدا !

قال : اذا والله لا ابالي ، ولئن بلغني انه وقف ببابك احسد من قوادي ، او احد من خاصتي او خلمي لاضربن عنقه ، ولا قبضن ماله . فمن شاء فليلزم ذلك !

ثم اخذ يعنفها ويؤنبها ويقول لها : ماهذه المواكب التي تغدو الى بابك كل يوم ؟ اما لك مغزل يشغلك او مصحف يذكرك او بيت يصونك . اياك اياك ان تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولا ذمي ! (١)

كانت الخيزران من ذوات الاثرة . وهذا النوع من النساء لا يبالي بما يفعل في سبيل ارضاء الاثرة والانانية وبسبب النفوذ . ولقد كانت ترغب في الامر والنهي والحكم . فوقف الهادي - بعد ان اتسع الخرق - ليسترد سلطانه . فلما ضايقها الامر وآنست من ابنها معارضة وقوة ، وآلمها ان يذهب سلطانها ، وترد المواكب عن بابها ، ارادت ان تنتقم منه ، فدمت اليه جواربي من جواربها غطين وجهه وجلسن فوقه فقتلته (٢) ، كل ذلك ليعود الامر اليها وحدها كما كان . وقد تم لها ما ارادت وتدفت عليها الاموال ، حتى بلغت غلتها قبيل موتها مائة الف الف وستين الف درهم . (٣) وقد قدر

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٥٨

(٢) ابن الاثير ، ج ٦ ، ٤٠

(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٦٣

احدهم ان هذا المبلغ يعادل نصف خراج المملكة العباسية آنئذ
وثلثي غلة روكفلر في هذا القرن . (١)

فلما ولي هارون الخلافة ، كانت الخيزران هي الناظرة
في الامور . وكان يحيى بن خالد يعرض عليها ويصدر عن رأياها
(٢) وكان الرشيد لا يعصى لها امرا . وقد ذكر الطبري ان
الرشيد لما عاد من دفنها ، دعا الفضل بن الربيع وقال له :
وحق المهدي ، اني لاهم لك من الليل بالشيء من التولية
وغيرها ، فتمنعني امي ، فأطيع امرها ! (٣)

اما بعد مقتل البرامكة فقد استبد الرشيد برأيه ، حتى ان
ظئره ام جعفر - وكانت قد أرضعته وربته - دخلت عليه
ايام النكبة فتلقاها واكب على تقبيل رأسها ومواضع ثديها ،
فقالت : يا امير المؤمنين ، اعدو علينا الزمان ويجفونا ، خوفا
لك ، الاعوان ، وقد ريبتك في حجري ، وأخذت برضاعك الامان
من عدوي ودهري ؟

ثم اخذت تستشفعه في يحيى والفضل ، فلم يسمع لها
ولم يرق لكلامها . (٤)

ولم يكن لزبيدة من الامر ، زمن الرشيد ، ماكان للخيزران ،

(١) التمدن الاسلامي لزيدان ، ج ٢ ، ١١١

(٢) الطبري ، حوادث سنة ١٧٠

(٣) المصدر السابق

(٤) العقد الفريد ، ج ٣ ، ٢٦٧

وان كانت هي أيضا ذات سلطان . وكانت تهب وتصل وتعطي
وتستشفع ولكنها ماكانت تتدخل في شؤون الدولة . ولعل
ذلك راجع الى البرامكة الذين استولوا على الامور كلها .

وفي الحقبة المعتدة بين خلافة المأمون والمعتضد ، نلاحظ
تدخل القيان من مسمعات ومغنيات وشواعر في امور الدولة .
ونلاحظ عظيم سطوتهن عند الخلفاء . . . فكن يستشفعن
ويقرين ويولين ويبعدن . وان كان بعض هذا قد حدث زمن
الرشيد ايضا . فقد كان كلفا بذات الخال ، فحلف لها يوما ان
لاتسأله شيئا الا قضاءه . فسألته ان يولي رجلا يحبها ، الحرب
والخراج بفارس سبع سنين . ففعل ذلك وكتب عهده به .
وشرط على ولي العهد بعده ان يتمها له ان لم تتم في حياته .
(١) ولعله اجابها الى ما سألت ليخلو له ، او لها ، الجو .

ويذكر الاصبهاني ان ابراهيم بن المدبر ، لما سجن ، سألت
عريب - وما ادراك ما عريب ! - الخليفة في اخراجه . فوعدها
بما تحب ، ثم أطلقه . (٢)

وكانت القيان ذوات السلطان ، يتعصبن لطائفة سياسية
او يشايعن مذهبا ، ويقضين حوائج اهله عند اولي الامر . وقد
ذكر ابن المعتز ان فضلا الشاعرة - وكانت في نهاية الجمال
والكمال والفصاحة وجودة الشعر - كانت تشيع ، وتعصب

(١) الاغاني ، ج ١٥ ، ص ٧٦

(٢) المصدر السابق ، ج ١٩ ، ١١٦

لهذه العصابة من الناس ، وتقضي حوائجهم بجاهها ومنزلتها
عند الملوك والاشراف . (١)

وغضب الواثق مرة على اسحاق الموصلبي ، فرضته عليه
فريدة جاريتة . وكانت اثيرة عند الواثق حظية لديه . (٢)



وما كاد يقترب القرن الرابع حتى اصبح النساء والقيان
ذوات سلطان كبير . ويذهب آدم منز الى انهن كن يطالبن
بالحق بالمهام الكبيرة - وما اشبه الليلة بالبارحة - لان ابن
بسام الشاعر يقول :

ما للنساء وللكتا بة والعمالة والخطابه
هذا لنا ، ولهن منا ان يبتن على جنبه (٣)

على ان القرن الرابع قد امتاز بالقهرمانات ، فقد كان لهن
الامر كله ، وكن يعملن الاعمال الكبار ، يعزلن الوزراء ويولين
الولاية ، ويجلسن للمظالم . وقد ذهبن الى ابعد من هذا وذلك
فكن يقضين بين الناس . فأم موسى القهرمانه هي التي اوصلت
ابا الحسين بن ابي البغل الى الوزارة ، فكان لا يخرج عن امرها (٤)

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (اقبال) ، ص ٢٠٠ (٢)

(٢) الاغانى ، ج ٥ ، ص ٦٠

(٣) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤٥

(٤) الصابي ، ص ٢٧٢

وكانت تجلس اخا لها عند القصر ، فيلقاه الناس واصحاب
الحوائج فيأخذ رقاعهم وشكاواهم وقصصهم اليها . (١)

وهي التي اغرت المقتدر بالله والسيدة امه ، بعلي بن عيسى
بن داود في وزارته (سنة ٣٠٤ هـ) فقبض عليه واودع
السجن . (٢)

وهي التي كانت تزيد في ارزاق الخدم وتنقص منها . (٣)
والسبب في تدخل هؤلاء القهرمانات في امور الدولة ، ضعف
المقتدر . فقد كان مشهورا بالتدبر بآراء النساء (٤) وكانت
السيدة والدته ، وخاطف ، ودستبويه ، ام ولد المعتضد ،
يدبرن الامر لصفهه . ثم ظل تدخلهن جاريا . وهكذا انتقلت
الحكومة في ايامه ، في بغداد ، من الرجال الى النساء .

ويذكر السيوطي انه في سنة ٣٠٦ هـ ، - اي زمن المقتدر -
آل الامر الى ان امرت ام المقتدر قهرمانة لها تعرف (بمثل)
ان تجلس للمظالم بالتربة التي بنتها بالرصافة ، وان تنظر في
رقاع الناس كل جمعة . فكانت تجلس ، وتحضر القضاة
والاعيان ، وتبرز التواقيع وعليها خطها . (٥)

(١) الصابي ، ص ٢٧٧

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٦

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٢ - ٢٥٤

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٩

(٥) المنتظم لابن الجوزي ، ج ٦ ، ١٤٨

وقبضت أم المقتدر على زمام الامر . وامتد سلطانها على كل شيء حتى انها كانت تراقب - لحذرهما - ما كان يقرأه ابناؤها . وقد ذكر الصولي انه كان يوما عند الرازي يقرأ عليه شيئا من شعر بشار ، وبين يدي الرازي كتب لغة وكتب اخبار ، اذ جاء خدم من خدم السيدة جدته ، وهي شغب أم المقتدر ، فأخذوا جميع ما بين ايديهما من الكتب ، فجعلوه في منديل ابيض كان معهم ومضوا . فاغتاظ الرازي . فسكن منه استاذة ، وافهمه انهم ارادوا ان يمتحنوا الكتب . ولما مضت ساعتان او نحو ذلك ردوا الكتب بحالها ، فقال لهم الرازي : « قولوا لمن امركم بهذا : قد رايت هذه الكتب ، وانما هي حديث وفقه وشعر ولغة واخبار وكتب العلماء ، وليست من كتبكم التي تبالغون فيها مثل عجائب البحر وحديث سندباد ، والسنور والفار . » (١)

وظل المقتدر على عرش الخلافة زهاء خمسة وعشرين عاما ، والنساء من حوله يحكمن .

ومن الطرافة ان نذكر هنا ان المعتضد كان قد تنبأ لابنه المقتدر بان النساء سيستولين عليه . حدث صافي الحرمي مولى المعتضد قال : مشيت يوما بين يدي المعتضد ، وهو يريد دور الحرم فلما بلغ باب شغب (أم المقتدر) ، وقف يتسمع

(١) الحضرة الاسلامية ، ج ١ ، ١٦ - نقلا من اوراق الصولي .

ويتطلع من خلل الستر فاذا هو المقتدر ، وله اذ ذاك خمس سنين أو نحوها ، وهو جالس وحواليه مقدار عشر وصايف من اقرانه في السن ، وبين يديه طبق فيه عنقود عنب في وقت لا يوجد فيه العنب ، والصبي يأكل عنباً واحدة ثم يطعم الوصائف كلهن على الدور ، حتى اذا بلغ الدور اليه اكل عنباً واحدة ، حتى فني العنقود ، والمعتضد يتميز غيضا . فاهتم ورجع ، فسألته فقال : والله يا صافي ، لولا النار والعمار لقتلت هذا الصبي اليوم ، فان في قتله صلاحا للامة !

فقلت : يا مولاي حاشاه ، اي شيء عمله ؟ أعينك بالله من اللعين ابليس !

فقال : ويحك ، انا ابصر بما اقول . انا رجل قد سست الامور واصلحت الدنيا بعد فساد شديد ، ولا بد من موتي . واعلم ان الناس بعدي لا يختارون غير ولدي . وسيجلسون ابني عليا (يعني المكتفي) ، وما اظن عمره يطول للعلة التي به (يعني الخنازير التي كانت في حلقه) فيتلف عن قريب ، ولا يرى الناس اخراجها عن ولدي فلا يجدون بعده اكبر ممن جعفر (يعني المقتدر) فيجلسونه وهو صبي . وله من الطبع في السخاء هذا الذي رايت . فتحتوي عليه النساء لقرب عهده بهن ، ويقسم ما جمعه من الاموال كما قسم العنب !

وكانت الصورة كما قال المعتضد بعينها . (١) .

وفي عهد المقتدر اشتد سلطان امرأة اخرى يقال لها « زيدان » ، وكان لها طبيب خاص بها ، هو عيسى البغدادي ، يحمل الرقاع بين الوزراء وربما حملها اليها لتعرض ذلك على الخليفة . (١)

وقد استطاعت زيدان هذه ان تتمكن من جواهر المقتدر وان تأخذ سبحة لم ير مثلها ، كان يضرب بها المثل ، فيقال سبحة زيدان . وكانت قيمتها ثلثمائة الف دينار (٢) واستطاعت ان تجعل دارها سجنا . فقد سجن عندها علي بن عيسى بن داود بعد وزارته (٣) ، ومن قبله وكل بأبن الفرات عندها (٤) كما سلم اليها الامر الحسين بن حمدان ايضا . (٥)

وثمة خليفة آخر لعبت به النساء ، هو المستكفي . فقد كان عبدا لحسن الشيرازية . وكانت هذه قد سمرت بينه وبين توزون القائد التركي ، واستطاعت ان تجعله خليفة ، وتولت ايضا سمل المتقي بيد غلامها السندي . (٦)

واصبحت بعد ذلك تستبد بالمستكفي ، وتولى عرض القلمان

(١) تاريخ الحكماء للقفطي ، ص ٢٤٩

(٢) المنتظم ، ج ٦ ، ص ٧٠

(٣) الصابي ، ص ٢٨٦

(٤) الصابي ، ص ١٠٥

(٥) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٤٣

(٦) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢١٠

والحجاب فى قصر الخليفة ، فى مجلس يقال له الحوذان .
فانخرقت الهيبة بهذه المرأة ، وذهبت الرسوم التى كانت
للخلافة وصارت الدار طريقا لكل من يراها . (١)



يتضح من هذا ، ماكان عليه خلفاء بني العباس ، حتى
منتصف القرن الرابع ، وما كان من اثر النساء فيهم ، وما
أدى تدخلهن فى الامور ، من انخراق الهيبة ، وضياع الامور ،
وانتشار الفوضى . وهذه نتائج طبيعية محتومة لمن يولي امره
امراة ويدعها تفعل ماشاء .

القرية الفضية

هذه القرية ، هي احدى عجائب العصر العباسي في بغداد .
وما اكثر ماكان في زمن العباسيين من عجائب . وكانت قرية
من فضة ، وفيها كل ماتجد في القرى : من بقر ، وغنم ، وجمال ،
وجواميس ، واشجار ، ونباتات ، ومساح ، وناس . وكل
ذلك قد صنع بأدق صنعة من الفضة ، وانفق عليه آلاف
مؤلفة من الدراهم .

وكانت هذه القرية قد صنعت للخليفة المقتدر ، ليرى كيف
تكون القرى . واغلب الظن انه اشتهى رؤية قرية وصنعت
هذه له .

وقد نعجب بالحضارة الاسلامية التي بلغت في القرن
الرابع الهجري نضجها فابدعت اشباه هذه الاشياء . وقد
يدهشنا ماانفق هذا الخليفة من الاموال ، لتصنع له هذه القرية .
ولكن الذي يدعو الى العجب والدهشة مما ، قصة هذه القرية
واثر النساء في مصيرها .

وهذه القصة جديرة بان تكون خاتمة لما ذكرناه عن
حكومة النساء لدى الخلفاء في زمن بني العباس .

ذاك ان ام المقتدر - وكان لها من الشأن ما علمت - كان لها
داية تخدمها تسمى « نظم » . وكانت نظم بارعة ذكية ، فما
زالت حتى صارت من قهارمها ، وصارت تجري على يديها
الكبير من الامور والصغير . وكانت نظم ترغب في رجل اسمه
ابو القاسم يوسف بن يحيى ، فرفعتة ، وانتهت به الى اسنى
الارزاق وأوسع الاحوال ، وقربت بينه وبين السيدة حتى
اخرجت له الصلات ، فتأملت حاله ، وصار صاحب عشرات
الوف من الدنانير ، ثم خلطته بخدمة السيدة الام ، فزاد
منها تقربا .

وعزم ابو القاسم هذا ، على تطهير ابنه يوما ، فأعد لوليمة
الختان عدة كبيرة ، وأنفق على ذلك مالم يسمع ان فعل مثله
رجل من الحاشية ، حتى انه لكثرة ماأبتاع من الحاجات أفرد
عدة دور للحيوان ، وعدة دور للفاكهة . وبلغ « نظم » خبره ،
فسعت عند السيدة الام ، وجاءته من عندها بالاموال والفرش
والآنية والثياب والمخروط . (١)

فلما مضت ايام سألت السيدة « نظما » : يا نظم ، ايش خبر
طهر ابن يوسف ؟

(١) المخروط ضرب من الزجاج

قالت : ياستي ، قد بقيت عليه أشياء يريدونها !

فقالت : خذي ماتريدين واحمليه اليه !

فجاءت نظم اليه وقالت : ان كان قد بقي في نفسك شيء ،

فعر فني .

فقال لها : الختان غداً ، وما بقي في نفسي شيء الا وقد

بلغته بك ، وقد بقي في نفسي شيء لست اجسر

على مسأله !

قالت : قل ما في نفسك !

قال : اشتهي اعارة القرية الفضية التي عملت لامير المؤمنين

ليراها الناس في داري ، ويشاهدوا مالم يشاهدوا مثله ،

فيعلموا مالي من الاختصاص والعناية !

فوجمت ، وقالت : هذا شيء عمله الخليفة لنفسه ، ومقداره

عظيم ، وفي هذه القرية مئآت الالوف من الدراهم ، ولا احسب

جاهي يبلغ اليها . وكيف يستعار من خليفة شيء ؟ ومتى

سمع بخليفة يعير ؟ ولكن انا اسأل السيدة !

وندع الان ابا القاسم يقص علينا ما حدث قال :

فلما كان الليل جاءني ، فقلت : ما الخبر ؟

قالت : كل ماتحب ، قد جئتك بالقرية هبة لا عارية .

وجئتك معها بصلة ابتدا بها امير المؤمنين من غير مسألة احد .

فقلت : ما الخبر ؟

قالت : مضيت وانا منكسرة القلب ، آيسة من أن يتم هذا .
فدخلت على السيدة ، على هيئتي تلك . فقالت : « من اين ؟ »

قلت : من عند عبدك يوسف . وهو على ان يطهر ابنه غدا .

قالت : اراك منكسرة !

قالت : ببقائك ما انا منكسرة !

قالت : ففي وجهك حديث !

فقلت : خير !

قالت : بحياتي عليك ، ماذا ؟

قلت : قد شكر ماعومل به ودعا ، وقال اني احب ان
اتشرف بما لم يتشرف به احد قبلي ليعلم موضعي من الخدمة .

قالت : وما هو ؟

قلت : يسأل ان يعار القرية ليتجمل بها ، ويردها من غد !

فأمسكت ، ثم قالت : هذا شيء عمله الخليفة لنفسه ، كيف
يحسن ان يرى في دار غيره . وكيف يحسن ان يقال ان
الخليفة استعاره منه بعض خدمه ثم استرده منه ؟ وهذا
فضيحة ، وليس يجوز ان أسأله هبتها له ، لاني لا ادري ان كان
قد ملها وشبع منها ام لا . فان كان قد ملها ، فقيمتها عليه
هينة . وان كان لم يملها لم ارض ان أفجعه بها ، وسأسبر
ماعنده في هذا !

ثم دعت بجارية فقالت : « اعرفوا خبر الخليفة ! » فقبل لها انه عند فلانة ، فقالت (اي لنظم) : تعالي معي ! فقامت ، وانا معها وعدة جوار . حتى دخلت . وكانت عادته اذا رآها ان يقوم لها قائما ، ويعانقها ، ويقبل رأسها ، ويجلسها معه في دسته (١) . (قالت نظم) : فحين رآها قام واجلسها معه وقال : ياستي - وهكذا كان يخاطبها - ليس هذا من اوقات تفضلك وزيارتك !

فقالت : ليس من أوقاتي !

ثم حدثته ساعة ، وقالت : يا نظم ! متى عزم ابنك يوسف على تطهير ابنه ؟

قلت : غدا !

فقال الخليفة : ان كان يحتاج الى شيء آخر أمرت به .

فقالت : هو مستكف داع . ولكن قد أتمس شيئا ما استحسن خطابك فيه .

قال اريد ان اشرف على اهل المملكة كلهم ، ويرى عندي ما لم ير في العالم مثله .

قال الخليفة : وما هو ؟

قالت : ياسيدي يلتمس ان تعيره القرية ، فاذا رآها الناس عنده ارتجعت .

(١) الدست كلمة معربة معناها صدر البيت

فقال : ياستي ، والله هذه ظريفة . يستعير خادم لنا شيئا ، وتكونين أنت شفيعة ، فأعيره ثم ارتجعه . هذا من عمل العوام لا الخلفاء . ولكن اذا كان محله من رأيك ، هذا ، حتى قد حملت على نفسك بخطأبي ، وتجشمت زيارتي ، وانا اعلم انه ليس من اوقات الزيارة ، فقد وهبت له القرية ، فمري بحملها بجميع آلاتها اليه ، وقد رأيت ان اشرفه بشيء آخر : يحمل اليه غدا جميع وظائفنا ، ولا يطبخ لنا شيء البتة ، بل يرسل اليه ويؤخذ لنا سمك طري فقط .

وامرت السيدة بنقل القرية ، فتملكها ابو القاسم . (١)

فهذه قصة بسيطة ، على ان فيها كثيرا من حياة القصر رمز المقتدر ، وهي تبين لنا طرق الكلام والمحادثة ، وطرق تأمر النساء على الخليفة ، وطرق تبذير الاموال . على ان اعظم هذه الاشياء كلها ، هو تأثير نظم والسيدة في الخليفة ، وانقياد هذا الخليفة للنساء ، وتركه الامور لهن يصرفنها كيفما شئن وارذن .

اعراس الخلفاء وولائمهم

الحديث عن الافراح والولائم وحدها ، بصورة عامة ، لذ طريف تحن اليه النفس وتهش له الروح ويروق خاطر ، لانه حديث فيه جذل ولور ، وضحك وسرور ، وجمال وعطور ، ونحن نحب سماع ذلك لما نشعر به عند سماعه . فما ظنكم اذا شع الفرح ، ورف النور ، واشرق الجمال ، وفاح العطر ، في قصور بغداد التي زعموا انها فرت من الفردوس ، فأتت حفافي دجلة لتفرق في النعيم ، وتتلأأ بالحسان ، وتزهـر بالقلمان ، وتصفق للعزف والشعر ، وتطرب للحب والانغام ؟

الحق ان اعراس بغداد وولائمها كانت افراحا ماطاولتها افراح ، في النضارة والفخامة ، أو فاضلتها في الروعة والالاقة ، او دانتها في البهجة والضخامة . ومن اجدر من بغداد العروس ، بتقديم اجمل الاعراس وأعجب الولائم .

واذا كان الحديث عن الاعراس لذا طريفا ، فالأطرف من التحدث عنها ، أن يشهدها المرء ، فتغمره بنورها ، او ان تصور له فيحس لمراها بنشوة صافية . ولهذا عني الغربيون بتصوير

مباهج الاعراس الكبيرة ، واستمد منها الفنانون والمصورون
روائع خالدة ، ماتزال تزدان بهافي الغرب المتاحف ودور الآثار .
فقد رسم « رافائيل » عرس « ابنة الدوبراندين » الحسناء
الفلورنسية ، باروع ماصور به مصور عرسا . وصور عرس
« روكسان » زوج الاسكندر المقدوني ، ولكن اروع ألواحه هو
عرس « بيسيته » الفتاة الجميلة التي تزوجها اله الحب ، كما
تزعم الاساطير . ورسم « رامبرندا » عرس « جانسون
وكريوز » . وكذلك رسم فنانون آخرون اعراس الاغريق .
فصور « جان درين » عرس « بيليه » ابي آشيل البطل
و « تيتيس » احدى عرائس البحر . واهتم آخرون بتصوير
اعراس اخرى استمدوها من التوراة ، كعرس اسحق ،
ويعقوب . كما صور غيرهم الاعراس الفلاماندية ، والالزاسية
والهولاندية ، والبريطانية ، واعراس فينسيا ، ولشبونة ،
وباريس ...

وما اعلم ان العرب تركوا لناصورا تمثل اعراسهم الماضيات،
رغم انهم برعوا في التصوير براعة كبرى ، فزينوا جدران
قصورهم بتصاوير شتى ، تعجب لحسنها العين ، وتدهش
لاتقانها النفس . وما ندري فلعلهم صوروا مباهج ترفهم على
جدران قصورهم ، فعفاها كر العصور ، وكثرة الفتن .

على ان كتب الادب والتاريخ ، قد حفظت لنا اوصافا دقيقة
لاعراسهم وولائمهم ، تغنينا عن الألواح والصور .

فمنذ بدأت حقبة الترف ، زمن المهدي ، ظهرت روعة الافراح . فقد كانت الثروة قد اتسعت ، وكان أفرس قد تغلغنت في البلاد . وكان المهدي نفسه لا يحفل بالمال ولا يمسكه ، وكان ميالا للبخخ والطرب واقتناص اللذات . فلذ بما شاء ، وترف بما اراد ، ولها بما احب . ولعل بذخه وترفه يظهران في الزفاف الذي اقامه لابنه هارون الرشيد ، عندما تزوج زبيدة . فقد احتفل بذلك احتفالا كبيرا ، واستعد له استعدادا عظيما ، وانفق عليه خمسين الف الف درهم . فماذا صنع ؟

لقد اقام الزفاف في قصر الخلد ، على ضفاف دجلة ، ودعا الناس قبل شهر من الافاق ، فاقبلوا مسرعين ، يمسون انفسهم بنوال كثير ، ومقام طيب . فاضافهم المهدي . واتى بالالات المختلفة : اتى بالآنية المصنوعة من الذهب والفضة ، وبالفرش والبسط الارمينية الفاخرة ، هذه البسط التي كان الوليد بن يزيد يحبها ، ويفرش بها أرض مجالسه ، ويزين بها حيطان قصوره ، والتي كانت أفخر ما يهدى للخلفاء ، والتي قال عنها ماركوبولو الرحالة ، لم تر عيني اجمل ولا اجود منها . واتى ايضا بالثياب المطرزات بالذهب ، وبالطيب المختلف الالوان والضروب ، وبالجوهر الذي ملأ به الصناديق الكبار ، وبالحلى المرتفعات الاثمان . وملأ القصر باجمل الوصائف والخدم والغلمان .

فلما كانت ليلة الزف ، البس زبيدة العروس قميصا كله

من الدر الكبار ، مما لم ير مثله ، ولم يقف احد من القوميين له على قيمة لنفاسته . والبسها بدنة امرأة هشام بن عبد الملك ، والبدنة ثوب كله من الذهب ، لا يدخل فيه من الفزل سوى اوقيتين ، وينسج سائرہ بالذهب ، وزينها بالحلى حتى لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من الجواهر . ويقول متر : « ان هذا شيء لم يسبق اليه اكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم ولا ملوك الغرب » . وجاء نساء بني هاشم ، فكان يدفع لكل واحدة منهن ثوب وشي ، وكيسا فيه دنانير ودراهم ، وآنية ملى بالفضة وكان الخدم يملؤن اواني الذهب بالدراهم واواني الفضة بالدنانير ثم يدفعون ذلك الى وجوه الناس ، ويردونه بنوافج المسك وقطع العنبر (١) .

وبذخ المهدي بذخا بهر الناس . فقد خلف له المنصور والهادي الاموال الكثار ، فترف واتلف . وكان هذا الزفاف اول ما تألق من سعد الرشيد . ومات المهدي وخلفه الرشيد فرتع في بحبوحه من العيش . وامتد السلطان ، وحملت اموال الدنيا الى بغداد ، لا لتنفق في وجوه الخير دائما ، بل لتفرق على الفرس ، والشعراء ، والقصاد ، وتخبا لتنفق في زفاف آخر عظيم .

ولعل من الطرافة ان نصف ، قبل ان ننتقل الى الوان اخرى من الافراح ، وصف عرس قام في فرنسه ، في القرون الوسطى ،

(١) انظر الديارات (دبر السوي)

اي في الحقبة نفسها ، التي كانت تجري فيها تلك الاعراس في بغداد ، لتقايس بين اعراسنا واعراسهم .

فقد كانت العادة في بلاط ملوك فرنسه اذا احتفلوا بزفاف له شأن خطير ان يرقصوا رقصة المشاعل ، وهي ان يمسك كل مدعو الى الحفلة الملوكية ، بشمعة طويلة بيده ، فيرقص ويقفز وهي تشتعل . وقد قص الاخباري « فرواسار » وصف عرس من تلك الاعراس ، حضرها الملك شارل السادس :

قال : اقيمت الحفلة في القصر الملكي لزفاف احدي وصانف الملكة « ايزابود بافيير » الى رجل من الاشراف فعهد السى فارس نورماندي بترتيب الحفلة . فاراد الفارس ان يتفنن في الرقص ، ابتغاء مسرة الملكة ، وطلباً لمرضاة النساء . ففكر ان يلبس المدعوون لباس الحيوانات المتوحشة ، من جلود عتيقة ، وصوف غليظ ، وشعر ملبد ، وشرط ان لا يشترك في الحفلة الا من الصق بجلده شعرا او صوفا ، وتشبه باحد الحيوانات . ونفذت الفكرة ، ولبس النساء والرجال الجلود والصقوا بها الشعور والصوف ، وغطوا بها اجسامهم من اقدمهم السى رؤوسهم بحيث يحسب الرائي ، ان المدعويين ، وحوش فارة شريدة . ولبس الملك شارل السادس مالبسه غيره ، وقلده اربعة من اكبر رجال البلاط .

وبدا الرقص . واخذوا جميعا يرسلون ، وهم يقفزون ويرقصون ، اصواتا يقلدون بها اصوات الحيوانات والوحوش ،

حاملين تلك المشاعل بايديههم . وكان كلما زاد عواء الواحد منهم او نباحه او زئيره ، واتقن تقليد الصوت ، ازداد اعجاب الحاضرين به . . . وبينما كانت الوحوش تصرخ وترقص بفرح وسرور ، مس احد المشاعل ذنب احد الحيوانات . فاشتعل وهو لايشعر . فلما احس ، ازداد قفزانه فزاد لهبانه . وسرت النار الى الراقصين ، فازداد قفزهم وصراخهم ، وزاد سريان النار فيهم ، فاحترقت جسوم بعضهم ، ولم ينج منهم الا القليل .

ويقول فرواسار ان الملك شارل السادس ، ظهرت عليه علامات الجنون منذ تلك الليلة (١) .

والى جانب هذه الاعراس البغدادية نجد ولائم اشد روعة ، واكثر جمالا . يحسبها القارئ خيالا ، وهي حقيقة .

من هذه الولائم الرائعة ، وليمة صيد اقامتها حمنة بنت عبد الله الهاشمي للمأمون . وكانت حمنة آدب نساء بني هاشم ، فصيحة اللسان ، حلوة الكلام ، كثيرة المال . وكانت تهوى المأمون . فذكروا من خبرها ، ان المأمون كان جالسا يوما في ايوان واسع قد ابتدعه لنفسه ، وصور على حيطانه صيد البر والبحر ، واقام فيه اربعمائة وصيفة ، بقراطق من حرير ، بقدود واحدة : مئتين عن يمينه ، ومئتين عن يساره .

(١) انظر :

F. Brento, *La Société au Moyen Age* (Flammarion)

وكان عنده يحيى بن اكرم كبير القضاة . فدخلت عليهما حمئة .
فقال لها المأمون : « هل كان لايك ياحمينة ، او لاحد من
الخلفاء ، مثل هذا الايوان ؟ »

قالت : « متعك الله به وعمره بك . ان اجبت حمئة ،
اجلستك في مجلس ، لم تجلس في مثله قط ، واصادتك صيدا
لم تصد مثله قط . »

قال : « ياحمئة ، قد اجبتك الى ماسألتنى ، وسآتي مع
يحيى غدا . »

فلما كان الغد ، ذهب المأمون ويحيى ظهرا الى دار حمئة .
فأقبلت نحوهما بنفسها تستقبلهما . ومشيت بهما الى بيت
في بستان عظيم ، قد حمل على اربعة اعمدة من الرخام .
فدخلاه واذا في صدر البيت اشعار غزلية منقوشة بالسدر
والجوهر ، وقد فرش بالفرش الارمني ، الموشى ، المنقوش
باللآلئ . وفي جنباته مطارح الديباج الاخضر المحشوة بالريش .
وكانت روائح المسك والعنبر ، والند والعود ، الموضوعه في
اوان ذهبية فضية ، تفوح ، فيعبق ارجها . فدهش المأمون
لجمال البيت وحسنه . فاستراحا . ثم اخرجتهما الى ميادين
انشئت حول البيت ، فيها انواع الرياحين من ورد وسوسن
وبنفسج ، واذا بمائدة قد نصبت ، وعليها انواع المآكل
الغريدة . فجلسوا يأكلون . واعجب المأمون فقال : والله
ماطعمت مثل هذا الطعام قط !

ثم امرت بنوادر الفاكهة ، فحملت من البستان ، واقبلت
جارتان عليهما جباب الوشي المنسوج بالذهب ، وعلى راسيهما
تاجان مكللان بالجوهر . فجلستا تضربان وتغنيان . فانتشى
المأمون ، وصاح : هذه هي الجنة !

فلما طربا قال يحيى : يا امير المؤمنين ، الا نظوف في
البستان المجاور ؟

فقاما ومعهما حمئة . وكانت حمئة قد زينت هذا البستان
بأحسن ما تقدر عليه ، ووحملت اليه الاشجار من جميع الاقطار ،
ووشته بازاهير شتى ، وءاشيب مختلفات . واتخذت فيه
الوانا من الطيور كالهزاز ، والعنادل ، والشحارير ، والقماري ،
وتبخترت في جنباته الطواويس . . فأخذوا يستروحون ارج
الزهر ، ويمشون هونا في حواشي البستان ، ويتمتعون بجمال
دجلة . فقالت حمئة : الا تصيد يا امير المؤمنين ؟

قال : بلى !

وانفتل مع يحيى الى الصيد . وما كادا يتوغلان في البستان
ليصيدا الطيور ، حتى ظهرت فجأة مائة وصيفة من وصيفاتها
الحسان ، بطرر واحدة ، وشعور واحدة ، لابسات ثيابا موشاة
كالازاهير . وفي اوساطهن مناطق الذهب ، فانطلقن . . .
كالعصافير بين الاشجار . واخذن يقطفن النور ويتضاربن
بالرياحين ، ويرسلن الضحكات . فشهده المأمون وزاغ بصره ،
واعجب بما رأى . وهم يحيى ، قاضي القضاة ، ان يلحق بهن

ففررن منه ، وعدون من هنا وهناك ، يختبئن تارة ويظهرن تارة ، في ظلال الكرم المعرش بين الرمان والريحان !

وفتن المأمون بدوق حمنة ، وظرفها ، وبراعتها ، وبلوغها في التنسيق والترتيب الغاية فأمهرها من ساعته الف الف دينار ، واقطعها مائة من منتخبات الضياع ، واضحت زوجاله (١) .

هذي هي الوليمة كماوردت . سقتها لتروا مافيهامن البراعة والظرافة والدوق . ولكني احسب ان هناك ماهو اروع واحلى . هناك الحفلة التي اقامها المتوكل على الله لاعدار « طهور » ابنه المعتز . والمعتز كان محببا الى ابيه للطفه وفرط جماله . وقد اقام المتوكل هذا الطهور في قصر اسمه بركوآرا . وهذه كلمة فارسية معناها ، على ما قيل لي ، قصر الهناءة . وكان من احسن ابنية المتوكل واجلها . بلغت النفقة عليه عشرين مليون درهم . فكانت حفلة الاعدار نادرة ، اقيمت في ايوان القصر ، وكان طوله مائة ذراع اي مايقرب من خمسة وسبعين مترا ، وعرضه خمسون . فأمر المتوكل وزيره الفتح بن خاقان ان يلتمس في خزائن الفرش ، بساطا لهذا الايوان يكون بطوله وعرضه . فلم يوجد في مكان الا فيما اخذ من امتعة

(١) من عيون التواريخ لابن شاعر (مخطوطة الظاهرية) خلافة المأمون

هشام بن عبد الملك الاموي . وكان بساطا من الحرير والذهب .
قوم بعشرة آلاف دينار . فمد في الايوان . ونصب للخليفة
في صدره سرير يرى الناس منه . ومد بين يديه اربعة الاف
مرفع ذهب مرصعة بالجواهر ، فيها صور شتى من العنبر
والمسك . وخصص لكل من المدعويين من الامراء ، والقواد ،
والقضاة ، والشعراء ، والندماء ، مكان . ووقف في صحن الدار
امام الايوان ، اربع مائة جارية . ونثر في الايوان ، وفي صحن
الدار خمسة آلاف باقة نرجس ، وعشرة آلاف باقة بنفسج .
فكان منظر الجواري الحسان ، والبساط الحريري الرفاف ،
والنرجسات المحدقات كالعيون الفواتر ، والبنفسجات الدقاق
اللطاف ، من ابهج المناظر وابهاها . وفي هذا كله من الذوق
كثير .

وحمل التفاح من الشام الى بغداد لهذا الاعذار . فوضع في
صحن الدار في الف سلة من خيزران ، هو والليمون والاترج .
واقبل الناس . فجاء الامراء ، كأولاد الرشيد ، والمأمون
والمعتصم . وتبعهم القضاة والقواد . ثم جاء الندماء ، وكان
فيهم ، ابن المنجم ، وابنا حمدون . ثم اقبل المغنون والزامرون
والدافون ، كعمر بن بانة ، وأبي حشيشة الطنبوري ، وزناب
الزامر ، وابن الحفصي . واقبلت المغنيات لابسات متزينات ،
وفيهن بدعة التي شريت بالاف الدنانير .

وامتلا الايوان بالاشراف والكتاب والناس فأكلوا ماكل

غريبة . وكان امام كل رجل قفة صغيرة . فكان الخدم يطوفون فيملؤونها بالدرهم والدنانير . فيأخذها الرجل ، ويضعها في كفه او جيبه ، وكلما فرغت ، ملاها الخدم . فكان اذا اثقل الواحد منهم مااجتمع في كفه ، اخرجه الى غلمانه ، فدفعه اليهم ، خارج القصر ، وعاد الى مجلسه يملأ جيبه وكفه مرة اخرى ، حتى اذا انصرف ، اعطى ثلاثة اثواب ، وحمل على فرس او برزون الى داره .

واجتمع الجواري والخدم ، من البيض والسود ، والغلمان ، والقهارمة ، بعد انتهاء الوليمة ، فنشر عليهم عشرون مائون درهم . ثم اعتق المتوكل ألف عبد ، ووهب قصر الهناء للمعتز وانتقل الى الجعفري ، وكان ماوصل حرملة المزين ، ثمانون الف دينار ، سوى المصاغات والخواتيم والجواهر .

وكان ما انفق على هذا الاعذار ستة وثمانون مليون دينار ! وقد كانوا يقولون : « ان زفاف الرشيد هو دعوة الاسلام » فلما شهدوا زفاف المأمون قالوا : « بل هذه دعوة الاسلام » ، ولما راوا طهور المعتز قالوا : « هذه دعوة لم يكن قبلها مثلها ولن يكون ! »

على انه ان لم يقلدوا مافعل المتوكل في هذا الاعذار ، فقد اخترعوا الوانا اخرى من المفاثن ، فاقت وليمة المتوكل . فقد كانوا كلما ازداد بهم الترف ، واستفاضت الثروة ، اوجدوا اشياء لاتخطر على البال ، ولم نر او نسمع بمثلها .

وقديأتي بهذا من ليس بخليفة أو وزير ، بل متول من المتولين
على الدواوين . فقد كان للعباس بن الحسين دار يجتمع فيها دجلة
والفرات . فأتتهى خبرها الى احمد بن بوية ، فأحب النظر
اليها فدعاه العباس واولم له .

عمد العباس باديء بدء لداره ، فجدد فرشها كله ، واتي
بالديباج السندسي المنسوج لها بقدر طولها وعرضها ، المثقل
بالذهب . واتي بالارمني الرفيع وبالخز المرقوم ، وغير ذلك
من الفرش .

فلما فرغ من ذلك ، دعا احمد بن بويه . وكان الوقت زمن
النيروز الفارسي وقد زادت المياه ، وتكامل النبات ، ونسور
الشجر ، وطلع الثمر . وكان اصطنع في بستانه المحيط بالدار
على البركة العظيمة التي يجتمع فيها دجلة والفرات ، قصرا
مرتفعا ذا أربع طبقات من السكر . وكان لهذه الطبقات نوافذ
وابواب ، وكانت هذه الابواب تفتح فتخرج منها صور من
السكر على هيئة الجواري والغلمان ، بصنوف الملهي ، في
احسن الملابس . فكانت تدخل وتخرج ، وتذهب وتجيء .
فلا يشك الناظر انه قصر صحيح . وجعل العباس على شرفات
الطبقات صورا من انواع الطير والوحش ، كالعنادل والهازار ،
والسباع والقبيلة ، كل ذلك من السكر المموه بصنوف الاصباغ
والنقوش والذهب . . . وكل طائر او حيوان يرسل صوتا
مثل صوته . فلما كان يوم الدعوة ، امر بان يجمع ما في بغداد

من الورد . وجعل في اسفل دجلة جبلا كالسد . واتي بالورد
فنثره فوق دجلة ، حتى غمر صفحته اميالا . واقبل احمد
ابن بويه في سميرية يشق الورد ، فلم ير احسن من ذلك المنظر .

وتلقى العباس ، احمد بن بويه وبنيه ، فطاف بهم في جنبات
البيستان . فاعجبوا بقصر السكر اي اعجاب . ثم اسمعهم
المطربين والمسمعات ، ثم اطعمهم ماكل تفوق كل وصف .

ولما اراد احمد بن بويه ان ينصرف ، قدم له العباس آيتين
من ذهب وفضه في الاولى الف دينار ، وفي الثانية الف درهم .
ثم فرق الاموال على القواد ، ثم امر بنهب قصر السكر فنهبه
الحشم والغلمان .

... فتلك صور ضاحكة لافراح بغداد وولائمها ، ترف
فيها الحضارة ، ويطل البذخ ، وتتجلى الفتنة .

الورد في حياة الخلفاء

الورد جمال الربيع ومنبع الطيب وحلية الرعايب . غرم به الشعراء فجعلوه أبدان العذارى ، وخدود الملاح ، وانفاس الحبيب ، واتخذة الاوائل من النصارى رمزا ينثرونه مع الزهر على قبور الشهداء . وهو الى ذلك مهوى الانفس الرقيقة : تهش له الروح ويهفو الى مرآه القلب ، فان لونه الصافي ، وطيبه المسكر ، ورقته الناعمة ، لما يذهب الشجن ، ويهز الحس ، ويناغى القلوب .

لاجرم ان الفتنة بالورد لاتصدر الا عن وفرة الشعور ، ورهافة الذوق ، وعضوضة الطبع . فاذا اتيح لمن أوتي ذلك مباح النعيم ، ولذات الترف ، كان للورد عنده المحل الاول والشهوة الكبرى ، وتعجل بالتمتع به لان ايامه ، كما يقولون ، قصار كأيام الهوى ، ونفحه مسكر كفماغم الحب .

والباحث في تاريخ العصر العباسي يجد ان الترف والنعيم هذبا النفوس وارهما الاحساس ، وان اختلاط العرب بالفرس الذين كانوا يحتفلون بالورد ، وقيمون له الاعياد - رفعهم الى الاعجاب به وتمجيده .

ذكره الشعراء فمدحوه تارة وهجوه اخرى . واتخذته
القيان حلية يزين به قدودهن ، ويعطرن بعطره اجسامهن ،
ويفرحن به احبتهن والافهن (١) ونشره العشاق على مفارش
الحب واتخذوه رسائل الحب الى الحب ، كانه كلمات حلوة
ناعمة فيها الشوق والروح والحنين . وحفل به بعض الخلفاء
فكانوا يفرشون مجالسهم بفرش كالورد او ينثرونه في الفضاء
والهواء ، او يشربون على منظره وارجه .

وقد الفوا عن الورد الرسائل الحسان : فمنها كتاب « العقد
بفضل الورد » لمحمد بن احمد الوشاء (٢) وكتاب « المفاخرة
بين الورد والنرجس » لاحمد بن ابي طاهر (٣) وكتاب
« الورد » للثعالبي ، وكتاب « الانوار والثمار في الورد
والنرجس وجميع الانوار ، وما ورد فيها من الاشعار . وما
جاء فيها من الآثار والاقبار » لمحمد بن عمران المرزباني
وغيرها .

والبحث يطول اذا فصلنا ، ولذا فسنقصر كلامنا على ما اثر
عن الخلفاء العباسيين في شغفهم بالورد ولوعهم به ، فان في
ذلك طرفاة ومنتعة ، وتبيانا لناحية لم يطرقها الباحثون ،
وحدها ، بالتفصيل .

(١) انظر : عشق القيان للجاحظ

(٢) الموشى ، ج ٢ ص ١٣٨

(٣) معجم الادباء (مرغوليوث) ج ١ ، ١٥٥

ذكر الطبري (١) ان يعقوب بن داود وزير المهدي ، دخل على الخليفة يوما ، فاذا هو في مجلس مفروش بفرش مورد يشرف على بستان قد اكتسى بالاوراد والازهار . فكان ذلك كله موردا بشبه فرش المجلس الذي كان فيه . قال يعقوب : فما رأيت احسن منه ، ثم دخلت جارية مارأيت احسن منها ولا اشطر قواما ولا احسن اعتدالا ، وعليها ثياب من نحو لون الورد !

فهذا التوافق بين لون الفرش ولون الزهر ، ولون الثياب غاية في الذوق والفن ، ثم انه في اختيار لون الورد البهيج لأولئك جميعا رهافة حس ونعومة طبع ، قد تصادفهما في الغرب ، في هذه الايام .

وبلغت فتنة الرشيد بالورد مبلغا شديدا . دخل عليه ابراهيم الموصللي امير الغناء يوما وعنده جارية اديبة شاعرة ، وبين يديه طبق ورد . فقال الرشيد : يا ابا اسحاق ، اما ترى حسن هذا الورد ونضارته ؟

فقلت : لزيك يا امير المؤمنين احسن منه !

فقال : قل فيه شيئا !

فقلت :

كأنه خد موموق يقبله فم الحبيب، وقد ابدى به خجلا

فقالَت الجارية في الحال :

كأنه لون خدي حين تلمسني كف الرشيد لأمر يوجب الخجلا
مسر الرشيد سرورا عظيما ، وقال : قم يا ابا اسحاق . . .
فقد حركتني هذه الجارية بخلاية كلامها وحسن جوابها ! (١) .
وجميل جدا ان يكون الورد حديث الخليفة وندمائه ، ومثير
لذته وطربه ومهوى نفسه وروحه . ولا يتاح هذا الا لمن
هذبتة الحضارة ، وفتنه الجمال في كل صورة من مسوره حتى
في الورد العطر البهيج .

وكان المأمون معجبا بالورد يحبه ويهواه . رفع اليه مرة
ان حائكا يعمل السنة كلها لا يتعطل في عيد ولا جمعة . فاذا
ظهر الورد طوى عمله ، وغرد بصوت عال :
طاب الزمان ، وجاء الورد فاصطحبوا
ما دام للورد ازهار ونوار
فاذا شرب مع ندمائه على الورد غنى :
اشرب على الورد من حمراء صافية
شهرًا وعشرا وخمسا بعدها عددا
ولا يزالون في صبح وغبوق مابقيت وردة . فاذا انقضى
الورد عاد الى عمله وغرد :
فان يبقتني ربي الى الورد اصطحب
وان مت ، والهفي على الورد والخمر !

فقال المأمون : لقد نظر هذا الرجل الى الورد بعين جليسة
فينبغي ان نعينه على هذه المروءة . فأمر ان يدفع له في كل
سنة عشرة آلاف درهم في زمن الورد . (١)

كان المأمون الى جانب سعة عقله و غزارة علمه ، حلو النفس
رقيق الحاشية . ولا شيء ادل على هذا من الحادثة التي
ذكرناها فلقد عد حب الورد والميل اليه والشراب على منظره
وطيبه من المروءة ، واعان صاحب هذه المروءة ليمتع نفسه
بالورد وبالخمر ماشاء له طبعه المرهف وذوقه الرقيق .

ذكر الاتليدي ان المأمون شرب يوما ومعه يحيى بن اكرم .
فمال الساقى على يحيى حتى وقع سكران . فأمر المأمون ان
يلقي عليه الورد والريحان حتى يدفن فيه كأنه ميت . وصنع
بيتين من الشعر ، وقال لمغنيته : خذي العود وغني على
رأسه ، ففنت :

ناديته وهو حي لاحراك به مزمل في ثياب من رياحين

فقلت « قم » ، قال « رجلي لاتطاوعني »

فقلت « خذ » قال « كفي لاتواتيني » (٢)

وكان منظر الورد ، وما قيل في الورد ، كانا يشيران احساس
المأمون فيجود على حامل الورد او قائل الشعر فيه ، او مغنيه

(١) مطالع البدور ، ج ١ ، ٩٣

(٢) اعلام الناس للاتليدي ، ص ٩٨

بالمال الكثير ، جود من لا يخشى عاقبة ولا يحسب حسابا .
قال اسحاق بن ابراهيم :

دخلت يوما على المأمون في زمن الورد ، فقال لي : يا ابا
اسحاق !هل قلت في الورد شيئا ؟

قلت : أقول بسعادة أمير المؤمنين !

وفكرت ساعة فلم يفتح علي بشيء . فخرجت من عنده
وبقيت ليلتي ساهرا متفكرا فلم يفتح علي بشيء . فلما
اصبحت غدوت الى دار الخلافة . واذا غلام الفضل بن مروان
على باب المأمون ، ومعه سبع وردات ، على صينية فضة ،
ينتظر الاذن في الدخول بها عليه . فسألته المهلة بها قليلا ،
فامتنع . فسألته ثانية وقلت : لك بكل وردة دينار ان امهلت !

فأجابني الى ذلك ، فدفعت له سبعة دنانير ، واحببت الا
يصل اليه الورد قبل وصول الشعر . وخرجت اقصد الازقة
لعلي اسمع شيئا من احد او ينبعث خاطري ولو بيت واحد ،
فبينما انا كذلك ، واذا برجل يغربل التراب وهو ينشد :

اشرب على ورد الخدود فانه ازهى وابهى ، فالصوح يطيب
مالورد احسن من توردوجنة حمراء جاد بها عليك حبيب
صبغ المدام بياضها فكأنه ذهب بقالب فضة مضروب
فلما سمعته نزلت عن دابتي ، ودخلت مسجدا بالقرب منه
فطلبته وسألته ان يملئها علي . فاعتل وقال : ان اردت
فأعطني بكل بيت عشرة دنانير !

فدفعتها له ، واستمليتها منه ، وعدت ، ودخلت انا وغلام
الفضل . واذا بالمأمون يشرب من وراء الستار ، فلما جسست
العود قال لجواريه : اسكتن فقد جاء اسحق !

فقدمت ذلك الورد بين يديه ، وانشدت الايات ، فسمعت
الشهيق والزفير من وراء الستار . ثم اخرج الى بدرة فيها
عشرة آلاف درهم . فاعدت الايات فأخرج الى بدرة ثانية ،
فاعدت الثالثة ، فأخرج بدرة ثالثة . فخرج الى خادم وقال :
يقول لك أمير المؤمنين : لو دمت على انشادك ، لدمنا على
البدره ، ولو الى الليل . . . (١)

هذا ماكان عليه المأمون ، اما المتوكل فكان اشد الخلفاء
العباسيين شغفا بالورد . والحق ان حياته الخاصة تدل على
رقة ذوقه وطرافة لهوه ، وكأنه كان فنانا شاعرا ، وان لم
يؤثر عنه قول الشعر .

وقد بلغ من فتنته بالورد انه أستأثر به وحده وحرمه على
الناس . وكان يلبس في زمن الورد الثياب الحمر ، ويأمر
بالفرش الاحمر كالورد ، وكان الورد لا يرى الا في مجلسه ، وكان
يقول : « انا ملك السلاطين ، والورد ملك الرياحين ، وكل
منا اولى بصاحبه » (٢)

(١) اعلام الناس ، ص ١٠٥

(٢) مطالع البدور ، ج ١ ، ٦٣

ووجدنا في كتاب الديارات للشابشتي ، وكنا حققناه وعلقنا عليه ، أن المتوكل شرب في بركوارا . وهو قصر من قصوره . فقال لندمائيه « ارايتم ان لم تكن ايام الورد ، لانعمل نحن شاذ كلي ؟ »

(والشاذ كلي عيد يمهرجون فيه ميلاد الورد)

فقالوا : يا امير المؤمنين : لا يكون الشاذكلي الا بالورد !

فقال : بلى . ادعوا الي عبيد الله بن يحيى !

فحضر ، فقال له : تقدم بان تضرب لي دراهم في كل درهم حبتان ! (من فضة)

فتقدم عبيد الله في ضربها فضربت ، وعرفه الخبر ، فقال : اصبغ منها الحمره والصفرة والسواد ، واترك بعضها على حاله !

ثم تقدم الى الخدم والحاشية ، وكانوا سبعمائة ، بان يعد كل واحد منهم قباء جديدا وقلنسوة على خلاف لون الورد وقلنسوته ، ففعلوا . ثم عمد الى يوم تحركت فيه الريح فنصب له قبة لها اربعون بابا فانبطح فيها ، والندماء حوله . ولبس الخدم الكسوة التي اعدتها ، وامر بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، اولا اولا . فكانت الريح تحمل الدراهم فتقف بين السماء والارض كما يقف الورد .

قال : « فكان ذلك اليوم من احسن ايام المتوكل واطرفها »

وكان الورد ،الى ذلك ،يبعث الشعرفى صدر بعض الخلفاء .
ذكروا ان الواثق كان لا يشرب الا على الورد والريحان . وذكروا
ان خادمه مهج ناوله ذات يوم وردا وهو يشرب فأنشد :

حياك بالترجس والورد معتدل القامة والقصد
فألهمت عيناه نار الهوى وزاد فى اللوعة والوجد
املت بالملك له قرية فصار ملكي سبب البعد
ورنحته سكرات الهوى فمال بالوصل الى الصد
ان سئل البذل ثنى عطفه واسبل الدمع على الخد
مولى تشكى الظلم من عبده فأنصفوا المولى من العبد

فأجمعوا انه ليس لاحد من الخلفاء مثل هذه الايات
فى الجودة . (١)



فهذه طرف عن شغف بعض الخلفاء العباسيين بالورد ،
وليس هذا محل الاستقصاء ، وهى تدل على مبلغ الحضارة
والرقى ، وعلى رهافة الذوق وحب الازهار ، سقتها لما فيها
من لذة وطرافة وجمال .

(١) أخبار الخلفاء للسيوطي ، ص ١٢٧

الفلمان في حياة الخلفاء

نحن نعلم أن النساء اوتين حظا ومكانة في قصور الخلفاء العباسيين. واوتين ايضا حظا ومكانة في قلوب الخلفاء انفسهم . فحكمن وعبثن وسقين اولئك الخلفاء الهوى ، واذقنهم من طيبات اللذائذ ماخلب عقولهم وفتنهم . وعرفت اسماء بعض هؤلاء النساء ، فكان لها رنين وكان لها تاريخ .

فسحر وضياء ، وذات الخال وهيلانة محبوبات الرشيد . وعريب محبوبة المأمون ، ومتميم محبوبة المعتصم ، وفريدة عشيقة الواثق ، ودريرة محبوبة المعتضد وغيرهن من الحسنات الفاتنات ، كان لهن اثر في قلوب الخلفاء مايعادله اثر ، وكان لهن في تاريخ القصور شأن كبير قد لا نعرف عنه الا القليل .

ولقد انصرف نفر من الخلفاء الى النساء ووجدوا فيهن مايشتهون ، ولكن آخرين انصرفوا الى الفلمان او جمعوا بين النساء والفلمان معا .

ولعل الامين كان اول من عني بالفلمان . وهو الذي قدمهم

وأثرهم ورفع منازلهم . وصدق عن الجوّاري الحسان .
فلما رأت ام جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم ، اتخذت
الجوّاري المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤوسهن
والبستن الاقبية والمناطق ، فماست قدودهن ، وبرزت
اردافهن وبعثت بهن اليه . فاختلفن بين يديه فاستحسنهن
واجتذبن قلبه اليهن ، وابرزهن للناس من العامة والخاصة
فاتخذ الناس الجوّاري المطمومات ، والبسوهن الاقبية والمناطق
وسموهن الغلاميات . (١)

وكان ولوع الامين بالعلمان ظاهرا ، وكانت احاديث العلمان
تجرى في مجلس الامين نفسه ، وكان الامين من احسن خلق
الله ، لم ير ذكر ولا اشي مثله جمالا وحسنا . فسأل ابا
نواس ليلة ، وقد نظر اليه نظرة ذي علق : هل تشتهيني ؟

فقال ابو نواس : معاذ الله ! ومن يحدث نفسه بمثل ذلك ؟

فقال : اقسمت عليك بحياتي الا اخبرتنني !

فقال : ياسيدي ان الاموات يشتهونك ، فكيف الاحياء ؟ (٢)

وهكذا لم يجر الحديث حول اشتهاى العلمان ، بل صار

الخليفة نفسه موضع الريبة ومحط الشهوة !

(١) مروج الذهب ، ج ٨ ، ٢٩٦ (اوروبة)

(٢) نمار القلوب ، ص ١٤٨

وأحب المأمون الفلمان والولدان فاتخذهم بدلا من النساء .
ويذكر الثعالبي ان الفضل في ذلك يعود الى يحيى بن اكثم .
فهو الذي زين للمأمون اللواط وغرس في قلبه محاسن الفلمان
وفضائلهم وخصائصهم . وما ندري مبلغ هذا الخبر من
الصحة ، اكان أعداء يحيى هم الذين نسبوا ذلك اليه ام انه
كان يلوط الفلمان حقا . يقول الثعالبي : فصدر المأمون
عن رأيه .

وذكر ان المأمون نظر يوما الى يحيى في مجلسه وهو يحد
النظر الى ابن اخيه الواثق ، وهو اذ ذاك امرد تأكله العين .
فتبسم اليه وقال : يا ابا محمد ، حوالينا ولا علينا !

ومن الاحاديث الطريفة ماجرى بين المأمون ويحيى ذات
ليلة ، على المطايبه والمداعبة والمجاراة في ميدان الفلمان . وكان
مترف غلام المأمون حاضرا يسمع اليهما ، وهو الذي حكى
هذه القصة . قال :

قال المأمون : يا ابا محمد ! اخبرني عن اظرف غلام مر بك !
قال : نعم يا امير المؤمنين ، احتكم الى غلام في نهاية الملاحه
والظرف واللباقة ، فأخذته عيني وتعلقه قبلي . فلم افصل
في الحكم بينه وبين خصمه ايثارا مني للقائه ومعاودته اياي في
حكومته . فدخل الي حين خلوة ، ومثله لايجب عني . فلما
وصل الي قال : ايها القاضي ! اعدني على خصمي !

فقلت له : ومن يعدني على عينيك يا بني ؟

قال : شففتي !

وأدناه مني ، فلما شممت الخمر من فيه وبلغت حدا من
القبل ، قلت له : يا بني ! ما بال شففتك متشقتين ؟

فقال : احلى ما يكون التين اذا تشقق !

قلت له ، ويدي في ثيابه : يا بني ما انحفك !

فقال : كلما دق قصب السكر كان احلى !

فضحك المأمون ، ووقع له بمائتي دينار ، وقال اوصلها
اليه ولو على اجنحة الطير . وكان الغلام قد التحى ، وكسان
يحيى يعرف منزله فأوصلها اليه (١) .

اولوا شغف المأمون بالفلمان لما لذه حديث كهذا ، ولا استمع
اليه . وهل يحيى كان يرى ان اللواط بالغلام المملوك لا يوجب
الحد ، فأغرى المأمون به . وقد كان في الفقهاء من يرى
هذا المرأي . (٢)

واقتردى المعتصم بالمأمون في الولوع بالفلمان واتيانهم حتى
اشتهر بهم ، وملك ثمانية آلاف منهم . (٣)

وكان للمتوكل غلام اسمه شاهك ، وكان يعشقه الفتوح
بن خاقان ويقول فيه الشعر . وكان يسعى بينه وبين الغلام

(١) ثمار القلوب ، ص ١٢٣ - ١٢٤

(٢) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٣٤

(٣) ثمار القلوب ، ص ١٢٣

ابو عبد الله بن حمدون ، فعرف المتوكل الخبير فاستدعى ابا
عبد الله وقال له : انما اردتك واديتك لتنادمني لا لتقود على
غلماي . ثم نفاه . (١)

وكان عند المعتمد بدر الجنار وكان يحبه ويؤثره . (٢)
وكان المعتز يحب يونس بن بغا ، فلم يكن يفارقه ولا يصبر
عنه ، وله فيه اشعار كثيرة ، وكان يشرب على وجهه . وهو
القائل فيه من قصيدة :

تفیب فلا افرح فلیتک لاتبرح

وكان يأمر له بكل جليل من الخزائن . (٣)

تلك اخبار موجزة عن ولع بعض الخلفاء بالفلمان . وما
ندري سبب هذا التحول عن النساء الى الولدان . ولعل هذا
الشذوذ الجنسي آت عن كثرة النساء في القصور ، فملهن
الخلفاء ومالوا الى الولدان .

(١) الديارات ، ص ٤ - ٥

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٦

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٧ - وانظر هناك اخباره بالتفصيل

جواهر الخلفاء العباسيين

كان لرفيف الحضارة ايام العباسيين اثر كبير في رقي العواطف والاذواق ، والاندفاع نحو الترف والبذخ . ولعل الجواهر والخواتم ، والتيجان والوشح المرصعة ، والقلائس المجوهرة ، والقضبان العاجية الثمينة ، والاعمدة المذهبة ، كانت أكبر مظهر من مظاهر ترف الخلفاء وبذخهم ، ثم تعدوا ذلك الى ما هو ابعد وأروع ، فزينوا الحيطان والسقوف والابواب والرواشن بالدر وحلوها بمثل حليهم . (١)

وكانت الجواهر منذ الزمن البعيد ، قنية للاكاسرة يلتقطونها من كل مكان ، ويرسلون في اثرها الرسل ويجودون بالمال . وكانت هذه الجواهر مجتمعة من لدن اردشير بن بابك يرثها عنه القائمون بعده ، كابر عن كابر . حتى اذا جاء الاسلام ، وقوض عرش كسرى ، اقلت فارس الى الدولة العربية جواهرها وافلاذها . على ان هذه الكنوز لم تجد

(١) الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني ، ص ٢٢ (حيدر

آباد - كرنكو)

عند الخلفاء الراشدين هوى ، ولم يكن لهم ميل الى هذه الاعراض الدنيوية ، فصدفوا عنها ، و صرفوها الى سائر المسلمين . ولم يكن لبني امية شغف بالغ بأشباه هذه الامور ، فقد كانت دولتهم عربية لم يترعن فيها غير نفر او نفرين . فاتسعت الجواهر المذكورة في ايامهم ، وامتلات بها خزائنها (١) وتناقلها الناس ، حتى قالوا انه كان يعمل منها اوان ، ولهذا قال الشافعي في كتاب حرمله « لايجوز استعمال اواني الياقوت والبلور لان قيمتها تفوق قيمة الذهب » (٢) ووضح انه لو لم يكن هناك اوان من هذا الضرب لما قال الشافعي قوله . فلما فاجأتهم الدولة العباسية وجدوا خيرا كثيرا وجوهرا وافرا ، ولم ينتفعوا الا بالقليل منه فقد حدث بعض اهل مروان « لم يكن لنا في هربنا شيء انفع من الجواهر الخفيف الثمن الذي لايجاوز قيمته الخمسة دنانير . . » (٣)



ولقد شغف بنو العباس بالجواهر شغفا كبيرا . فقد ذكر ابن خلدون ان السفاح والمنصور اتخذوا الاسرة الذهبية ، المرصعة بالجواهر ، والحصر المنسوجة بالذهب ، المكلفة بالدر والياقوت . (٤)

(١) الجماهر ، ص ٥٧

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٦

(٤) التمدن الاسلامي ، عن ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ١٠٦

وذكروا انه كان لهشام بن عبد الملك درة اسمها « الدرّة اليتيمة » . اتى بها يوما وعنده امراته عبدة بنت عبيد الله بن يزيد بن معاوية ، وكانت مفرطة السمن ، لم تكن تستغني في الحركة عن معونة نفر . فقال لها هشام : أن قمت بنفسك من غير استعانة بأحد فلك هذه الدرّة !

فزاوت القيام بشدة ومشقة ، وما تم نهوضها حتى خرت على وجهها وسالّ الدم من انفها ، ففسلها هشام واعطاها الدرّة . وكانت ثلاثة مثاقيل ، حائزة جميع محاسن الصفات ، مدحرجة نقية رطبة من كثرة الماء ، ولذلك سميت اليتيمة . فلما انقضت دولة بني امية ، وانتدب عبد الله بن علي لبيع ودائع مروان بن محمد ، غمز اليه بان عند عبدة الدرّة اليتيمة وقرطان لها بقيا لديها . فاحضرها وطالبها بذلك ، فسلمت ذلك اليه . فقال لها : اختاري لك موضعا احسن لك فيه !

فسمت موضعا بالشام ، فسيرها اليه . ثم خاف ان يطلع السفاح على ذلك ويستخبرها ، فأتبعها عبدا ، حتى عدل بها عن الطريق وذبحها . (١)

وفعلة عبد الله بن علي هذه ، غاية في التوحش والغلظة والبدناءة .

(١) الجماهر ، ص ١٥٢ - وانظر نخب اللخائر لابن الاكفاني (كرملي) ص ٣٥٥

وكان مما اخذ منها بدنة مجوهرة كانت عندها . ذكر
الشابستي في كتابه « الديارات » ان المهدي لما زوج ابنه
الرشيد بأمة جعفر ابنة أخيه أستعد لها مالم يستعد لامرأة
قلها : من الآلة وصناديق الجوهر والحلى والتيجان والاكاليل
وقباب الفضة والذهب والطيب ، واعطاها بدنة عبدة امرأة
هشام . قال : ولم ير في الاسلام مثلها ومثل الحب الذي
كان فيها . وكان في ظهرها وصدرها خيطان من ياقوت
أحمر ، وباقيها من الدر الكبار الذي ليس مثله . (١) ويقال
ان المقومين لم يقفوا على قيمة هذا الدرع لنفاسته . (٢)

وذكر ابراهيم بن المهدي ان اباه اشترى فصا من ياقوت
أحمر ، على اقصى النهاية النفاسة ، بثلاثمئة الف دينار ، وكانت
أكياسا - لما نضد بعضها على بعض - كالجبل . وقد وهبه
للهادي . (٣) ، وقيل بل الذي اشتراه هو المنصور بأربعين
الف دينار . (٤)

ثم صار الى الرشيد فقرنه الى الخاتم « الاسماعيل »
الذي كان للمنصور . وكان من زمرد على وزن مثقالين يسمى
« البحر » تشبيها له بخضرتة . وكان شراؤه بأربعين
الف دينار . (٥)

-
- (١) الديارات ، ص ١٠٠
(٢) تحفة العروس ، ص ٣٦
(٣) الجماهر ، ص ٦١
(٤) المحاسن والساويء للبيهقي (شوالي) ص ٥٠٣
(٥) الجماهر ، ص ١٥٢

وكان الرشيد شديد الولوع بالجواهر حريصا على اقتنائها . بعث بالصباح الجوهرى ، جد الكندي ، الى صاحب سرنديب لاتباع جواهر من ناحيته . (١)

وكان ينثر الجوهر بغير حساب . وكان من جملة حظاياه واحدة لم ترزق جارية من الجمال مارزقته هي . وكان الرشيد اذا اتحفهن بشيء ردت هذه حصتها ، وهو يفتاظ من ذلك . فاتفق يوما انه نثر عليهن جواهر لها قيم عظام فالتقطنها ، ولم تمد تلك اليها يدا . ثم احضر جواهر غيرها وخيرهن . فاخترن ، وقال لتلك : لم لاتختارين أسسوة بصواحبك ؟ قالت : ان كان لي ما اختاره فسأفعل . واخذت بيده ، وقالت له : هذا اختياري من جميع جواهر العالم . فأعجب الرشيد بها وسماها خالصة ، وفاقت سائرهن في الخطوة منه وفي الصلات والمواهب . (٢)

وذكر البيهقي انه اشترى للرشيد جوهر بمائتي الف دينار فوهبه لدنانير البرمكية . (٣)

ولم تكن زبيدة زوجه اقل منه عناية بالجواهر ، فقد كان لها سبحة من يواقيت رمانية كالبنادق (٤) ، وكان شراؤها خمسين الف دينار . وجرى بين الرشيد وبينها

(١) الجماهر ، ص ٦٣

(٢) الجماهر ، ص ٥٨

(٣) المحاسن والمساوىء ، ص ٥٤٤

(٤) الجماهر ، ص ٥٨

ذكر نزاهة عمارة بن حمزة وعلو همته . فقالت : « ان الاقدام
الثابتة تزل عن مواضعها عند روائح آمال ، فادع به وهب له
سبحتي هذه ، فان ردها عرفنا نزاهته . » ففعل ، وخلا به
في أمر مهم ، ثم اتبعه السبحة فوضعها عمارة بين يديه بعد
ان شكر بره . ولما قام تركها مكانها . فقالت زبيدة : قد
انسيتها ، فاتبعه خادما بها !

فرجع قائلا : « ان عمارة قد وهبها لي » . فاعطته زبيدة
الف دينار وارتجعتها منه . (١)

وكان عند الرشيد قضيب زمرد اطول من ذراع ، وعلى
راسه تمثال طائر من ياقوت احمر لا قدر له نفاسة ، وقوم
هذا الطائر على حدته بمائة الف دينار . وكان هذا القضيب
هدية من بعض ملوك الهند . (٢)

وقد بلغ من اعجاب زبيدة بالدر انها امرت ان يتخذ
ثيابا لوصائفها من الدر المثقوب بالتصليب (٣) ثم ازداد
شغفها به حتى انها اتخذت الخفاف المرصعة بالجواهر تلبسها
في قصرها .

وقيل انها اشترت لعبد الله بن المخلوع قضيبا من زمرد

(١) الجماهر ص ١٥٦

(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨ ،

(٣) الجماهر ص ٥٨

قدر ذراع بأربعة وثمانين ألف دينار ليلعب به يوم اعذاره .
وكان على رأسه طائر من ياقوت احمر . (١)

اما المأمون فأخبره متناقضة ، تدل على شغفه بالجواهر تارة ، وتظهر نفوره منها أحيانا . فقد ذكروا أنه لما قدم بغداد منصرفا من خراسان أهدى إليه الفضل بن الربيع فص ياقوت لم ير مثله . فأخذ المأمون يقلبه ويحوله من يد إلى يد ويقول لجلسائه : ما رأيت أحسن من هذا الفص . ثم حدثهم أن أبا مسلم سرح زياد بن صالح إلى الصين ، فوجه إليه بفص وقع له من جهته إلى أبي العباس السفاح ، فوهبه لعبد الله بن علي ، وصار منه إلى المهدي ثم إلى الرشيد . فبينما هو يرمي قوس جلاهدق إذ بدر الفص من خاتمه وكر في ذلك الموضع حوالبه ، فلم يعثر له على أثر ، واغتم جدا . فاشترى له صاحب المصلى فصا عديم المثال بعشرين ألف دينار ، وبعث به إليه ليسليه عنه ، فلما نظر إليه قال : واين هذا من فصي !

ثم قال المأمون : « لأضعن من قدر هذه الحجارة التي
لامعنى لها » ، ثم رد الفص على الفضل . (٢)

وذكر ابن شاعر أن المأمون أعطى زوجه بوران ليلة زفافها
ألف حصاة من الياقوت ، وبسط لها فرشاً كان الحصير منه

(١) الجواهر ، ص ٦٥

(٢) الجواهر ، ص ٦٥

منسوجا بالذهب ، مكللا بالدر والياقوت . فكان بياض الدر
يشرق على صفرة الذهب ، ونثر الحسن بن سهل على المأمون
في تلك الليلة ألف جوهرة . (١)

ووهب المأمون للحسن بن سهل عقدا قيمته ألف ألف
درهم (٢) .

وقيل ان زبيدة لما دخلت على المأمون عند دخولسه
بغداد هنأته بالخلافة ، فأعجب بكلامها وحشا فاها درا . (٣)

وذكر ان المأمون كان يحب الواثق ويجهتد في تخريجه ،
وعادله في السفر مرة . فأخذ الجمال في الحداء . واشفق
المأمون ان يستيقظ الواثق من نومه . ولم يمكنه النداء بالجمال
فقطع سلك سبحة من الدر ، واخذ يرميه بدرة بعد اخرى
الى ان اصابه ، فالتفت اليه وأوما اليه بالسكوت . ثم دل أحد
الثقات بالفداء على الموضع فالتقطها من الطريق . (٤)

ولم يكن الامين باقل شغفا بالجواهر من أمه وأبيه ، حتى
بلغ به ذلك الى انه كان يشرب باقداح من بلور كللت جوانبها
بالجواهر الثمين . (٥)

(١) عيون التواريخ (مخطوطة الظاهرية) ج ٦ ، سنة ٢٠٤ هـ

(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨

(٣) عيون التواريخ ، سنة ٢٢٦

(٤) الجماهر ، ص ١٥٦

(٥) المحاسن والساويء ، ص ٣٦٢

وقوم الجوهر الذي سلم من النهب عند فتنة المأمون بألف
الف الف ، ومائة الف ، وستة عشر الف درهم . (١)

اما المعتصم فقد ورث ماكان عند ابيه واخيه ، وقالوا انه
لما قتل الافشين اخذ من داره أصناما محللة بالذهب
والجواهر . (٢)

وكانت هذه الجواهر تقع احايين كثيرة في ايدي الحاشية
والوصائف ، وربما عادت الى خليفة آخر مرة اخرى . فذكروا
ان المتوكل جلس يوما لهدايا النيروز ، فقدم اليه كل علق
ثمانين . فدخل عليه طبيبه جبريل بن بختيشوع ، وكان
يأنس به ، فقال : ماترى في هذا اليوم ؟

قال جبريل : مثل خرباشات الشحاذين ! اذ ليس لها
قدر . اقبل على مامعي !

ثم اخرج من كمه درج آبنوس مضرب بالذهب ، وفتحه
عن حرير اخضر ، فانكشف عن ملعقة كبيرة من الجوهر لمع
منها شهاب فوضعها بين يديه . فرأى المتوكل مالا عهد له
بمثله . فقال : من اين لك هذا ؟

قال : من الناس الكرام .

ثم حدث انه صار الى ابيه من أم جعفر زبيدة في ثلاث
شكايات عالجا فيها بثلاث مائة الف دينار . (٣) .

(١) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨

(٢) سيون التواريخ ، سنة ٢٢٦

(٣) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٣٨

وكان للمتوكل فص ياقوت احمر وزنه ستة قراريط
اشتراه بستة آلاف دينار . وكانت له سبحة فيها مائة
حبة جوهر ، وزن كل حبة مثقال ، اشترت كل حبة منها
بألف دينار . (١)

ودخل بختيشوع على المتوكل يوم مهرجان ، فقال :
اين هديتك ؟

فقال : هديتي لم يملكها خليفة قبلك !

واخرج ملعقة زبرجد توزن ثمانية مثاقيل .

وحكى عن آية جبريل انه قصد دنانير جارية يحيى بن
خالد فوجدها تأكل رمانا بهذه المعلقة . فقالت له : خذ
هذه المعلقة !

فأخذها ، ففرح المتوكل ، وأحضر عتابة الجوهري لتقويمها

فقال « لا اعرف لهذه قيمة ! » (٢)

وكان الواثق يملك الدر الكثير . وحكى محمد بن بشير النديم
انه دخل على الواثق فاذا هو في دار مفروشة الارض
والحيطان بالوشي المنسوج بالذهب على سرير مرصع
بالجواهر ، والى جانبه جاريته فريدة ، وذكر ان الواثق اغضب

(١) مطالع البور ، ج ٢ ، ١٢٨

(٢) الجماهر ، ص ١٦٥ - وانظر نشوار المحاضرة للتونخي ، ج ٢ ، ١٤٤

(مطبوعات مجمع دمشق)

فريدة يوما فاسترضاها بحق فيه عقد جوهر ماروي
مثله لخليفة . (١)

ولا ندري ماكان يفعل المعتز بالجواهر لو طالت خلافته .
على ان امه قبيحة - زوج المتوكل - كانت تجمع الجواهر
وتدخرها ولكنها لم تنتفع بها في دين ولا دنيا . ولم تفش
به ابنها حين طلب منه الاتراك خمسين الف دينار على ان
يقتلوا صالح بن وصيف ويريجوه منه . فلاذ بامه فشحت
عليه وقالت : لامال عندي .

فلما قتل المعتز وجد لها صالح ثلاثة اسفاط فيها زمرد
وجوهر وياقوت احمر ، ماظن ان يقع مثله ويكون في ايدي
العالم . وقوم هذا كله بألفي الف دينار . وقومت الاسفاط
بألف الف دينار . (٢)

ولما اشارت قبيحة هذه على ابنها المعتز بقتل اخيه المؤيد
بعثت الى امه بسبحة در قيمتها اربعة آلاف دينار . وقالت
لها : سبحي بها يا اختاه . فسحقتها في الهاون ، ولقتها في
كاغد وردتها الى حاملتها وقالت لها : اقرئي عني اختي السلام
وقولي لها : التسبيح لا يذهب بحزازات الدماء . (٣)

وكان بعض الخلفاء يبتاعون المتاع والاثاث بالجواهر بدلا

(١) عيون التواريخ ، سنة ٢٣٢

(٢) الجماهر ، ص ٦٨

(٣) الجماهر ، ص ١٥٨

من الدنانير . فذكر ابن شاعر ان المستعين اشترى من المعتز كثيرا من المتاع والاثاث بما قيمته عشرة آلاف دينار وعشر حبات جوهر . (١)

ولما انتقلت الخلافة الى المقتدر كانت خزانة الدولة مترعة بالجواهر . ومن جمعتها حجر الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثماية الف دينار ، والدرة اليتيمة التي قومت بمائة وعشرين الف دينار ، وغير ذلك . (٢) على ان المقتدر اضاع ما وصل اليه على النساء وبذرهما فيهن . ولما احتشم وزيره العباس ورام اسكاته بالاشترار في النهب وتلويثه بالخيانة انفذ اليه من الجواهر مايعظم مقداره تكرمة له . فردها العباس قائلا : « انها زينة الاسلام ، وعدة الخلافة ، وليس تفريقها بصواب . » (٣)

وكان لخالة المقتدر هذا فص يلقب « بورقة الآس » لانه كان على شكلها ، وزنه مثقال الا شعيرتان وشرائه بستين الف درهم . (٤)

تلك لمح موجزات عن الجواهر التي وصلت الى بعض خلفاء بني العباس ، واذا اضفنا الى هذا تلك الجواهر التي كانوا يزينون بها قصورهم كقصر البرج الذي بناه المتوكل وقصر الثريا ، وقصور المقتدر بما فيها دار الشجرة ، وقصور سامراء ، ادركنا مبلغ الترف والبذخ اللذين رتع فيهما الخلفاء فكانا سببا في وهن ملكهم واندثار حضارتهم .

(١) عيون التواريخ ، سنة ٢٤٨

(٢) الفخري ، ص ١٩١

(٣) الجماهر ، ص ٥٧

(٤) الجماهر ، ص ٥٧

الخلفاء العباسيون والهدايا

درج الناس في العصر العباسي على تقديم الهدايا للخلفاء .
ونلاحظ ان هذه الهدايا كانت تقدم في النيروز والمهرجان ، وفي
الفصد ، وفي العودة من الحج . هذا عدا الهدايا التي كانت
تحملها الرسل الواردة على الخليفة من الولاة والامراء ، او من
ملوك الروم .

اما الهدايا في النيروز والمهرجان ، فعادة فارسية اخذها
العرب عن الفرس منذ فجر العصر الاسلامي . ويقول الجاحظ
انها كانت معروفة زمن معاوية ، وظلت كذلك طول عهد
الامويين حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأبطلها ، فلما دالت دولة
الامويين ، وقامت دولة العباسيين ، عادت هذه العادة الى
الناس ، وصارت فرضا عليهم نحو الملوك .

ويبين الجاحظ العلة في تقديم الهدايا في النيروز والمهرجان
فيقول : « وأن من حق الملك هدايا المهرجان والنيروز ،
والعلة في ذلك انهما فصلا السنة . فالمهرجان دخول الشتاء
وفصل البرد ، والنيروز ايذانا بدخول فصل الحر . ومن

حق الملك ان تهدي اليه الخاصة والعامة . والسنة في ذلك عندهم ان يهدي الرجل ما يحب من ملكه اذا كان في الطبقة العالية ، فان كان يحب المسك اهدى مسكا لاغيره ، وان كان يحب العنبر اهدى عنبرا ، وان كان صاحب بزة ولبسة اهدى كسوة وثيابا ، وان كان من الشجعان والفرسان فالسنة ان يهدي ذهبا او فضة . وان كان من عمال الملك ، وكانت عليه متأخرات او بقايا للسنة الماضية جمعها وجعلها في بدر حرير صيني وشريحات فضة وخيوط ابريسم . . . ثم وجهها . وكان يهدي الشاعر الشعر ، والخطيب الخطبة ، والنديم التحفة والطرفة والباكورة من الخضراوات . وعلى خاصة نساء الملك وجواريه ان يهدين الى الملك ما يؤثرنه . ويجب على المرأة من نساء الملك ان كانت عندها جارية تعلم ان الملك يهواها ويسر بها ، ان تهديها اليه ، بأكمل أحوالاتها ، وأفضل زينتها ، واحسن هياتها . فاذا فعلت ذلك فمن حقها على الملك ان يقدمها على نسائه ويخصها بالمنزلة ويزيدها في الكرامة ! » (١)

وعاد الجاحظ في المحاسن والاضداد ففصل ما اجمل في التاج . قال : « وجعلوا شعارهم : كل يهدي على قدره . فكان القواد يهدون النشاب والاعمدة المصمتة من الذهب والفضة . والكتاب والوزراء والخاصة من قراباتهم جامات الذهب والفضة المرصعة بالجواهر ، وجامات الفضة الملوحة

(١) التاج ، ص ١٤٨ - ١٤٩

بالذهب . والعظماء والاشراف يهدون البزاة والعقبان والصقور والشواهين والفهود . وربما اهدى الرجل الشريف سوطا . وكانت الحكماء يهدون الحكمة ، والشعراء الشعر ، واصحاب الجوهر الجواهر ، واصحاب نتاج الدواب الفرس الفاره والشهري النادر ، والظراف قرب الحرير الصيني مملوءة ماء ورد ، والمقاتلة القسي والرماح والنشاب . وكانت نسوة الملك تهدي احدهن الجارية الناهدة والوصيفة الرائعة ، والاخرى الدرة النفسية والجوهر الثمينة ، وفص خاتم ، وما لطف وخف . واصحاب البز الثوب المرتفع من الخز والديباج وغير ذلك ، والصارفة تفر الذهب مملوءة بالفضة ، وجامسات الفضة مملوءة دنائير . « (١)

وكان للهدايا كاتب خاص ، يكتب اسم كل مهد ، وجائزة كل من يجيز الملك على هديته ليودع ديوان النيروز (٢) مهما كان شأن الهدية صغرت ام كبرت ، كشرت ام قلت . فاذا اهدى احدهم الملك هدية ، ثم لم يخرج له من الملك صلة عند نائبه تنوبه او حق يلزمه ، فعليه ان يأتي ديوان الملك ويذكر بنفسه . (٣)

وذهب آدم متر الى ان المهرجان كان يمتاز خاصة بأن

(١) المحاسن والاضداد ، ص ١٩٧

(٢) المصدر السابق

(٣) التاج ، ص ١٤٩

الرعية يهدون فيه الى السلطان . (١) ولا وجه لتمييز
المهرجان من النيروز وقد رأيت أن الجاحظ جعلها سوءاً ،
وذكر هدايا المهرجان وهدايا النيروز (٢) . وقد كان النيروز
عيداً قومياً يحفلون به حفلهم بعيد الفطر ، ويتبارون فيه
بالقصائد والهدايا .

ولتر الان انموذجات من هذه الهدايا في ضروبها واصنافها :

فلقد اهدى المنصور الوصائف من الرجال . حدث الفضل
بن الربيع عن ابيه قال : كنت في خمسين وصيفا اهدوا
للمنصور ، ففرقنا في خدمته . (٣)

واهدت جارية الى المهدي تفاحة ، فأعجب بهذه الهدية
وقال :

تفاحة من عند تفاحة جاءت فماذا صنعت بالفؤاد

والله ما ادري ابصرتها يقظان ام ابصرتها في الرقاد (٤)

ولما عشق ابو العتاهية عتبة ، جعل هديته الى المهدي
وسيلة لوصالها . فقد ذكر المبرد ان ابا العتاهية استأذن في ان
يطلق له ان يهدي الى امير المؤمنين في النيروز والمهرجان .

(١) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ٢٨٤

(٢) المحاسن والاضداد ، ص ١٨١

(٣) الاغانى ، ج ٦ ، ٨

(٤) عيون الاخبار ج ٣ ، ٣٩

فأهدى له في أحدها برنية ضخمة فيها ثوب ناعم وطيب ،
قد كتب على حواشيه .

نفسى بشيء من الدنيا معلقة الله ، والقائم المهدي يكفيها
اني لأياس منها ثم يطمعني فيها احتقارك للدنيا وما فيها (١)
وحدث ابراهيم بن المهدي قال : كنت عند الرشيد ، فأهديت
له اطباق ومعهما رقعة . فلما قراها استفزه الطرب . فقلت :
يا امير المؤمنين ما الذي أطربك ؟

قال : هذه هدية عبد الملك بن صالح .

ثم نبذ الى الرقعة فاذا فيها : « دخلت يا امير المؤمنين
ستانا أفادنيه كرمك ، وعمرته بنعمتك ، وقد أينعت ثماره
وفاكهته . فأخذت من كل شيء وصيرته في اطباق القضب
ووجهته لامير المؤمنين ليصل الي من بركة دعائه مثل ما وصل
الي من بركة عطائه . » (٢)

قلت : وما في هذا ما يقتضي هذا السرور ؟

قال : الا ترى الى ظرفه كيف قال القضب ، فكنى به عن
الخيزران اذ كان يجري به اسم امنا ؟

ثم كشف المنديل ، فاذا بعضها فوق بعض ، في أحدها
فستق ، وفي الآخر بندق ، الى غير ذلك من الفاكهة . (٣)

(١) وفيات الاعيان ، ج ١ ، ١٢٦ ، ١

(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ١٢٦ ، ٢

(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٨٠ ، ٢

واهدى احمد بن يوسف للمأمون ثوب وشي (١) ، واهدى
اليه مرة ثانية طبق جذع عليه ميل من ذهب فيه اسمه منقوش ،
وكتب اليه : « هذا يوم جرت فيه العادة ، بالظاف العبيد
السادة ، وقد ارسلت الى امير المؤمنين طبق جذع فيه
ميل . » (٢)

واهدى له عبد الله بن طاهر فرسا ، وكتب اليه : « قد
بعثت الى امير المؤمنين بفرس يلحق الارانب في الصعداء ،
ويجاوز الظباء في الاستواء ويسبق في الحدور جري الماء (٣)
رهديّة الخيل كانت معروفة من قبل . فقد اهـدى
الحجاج الى عبد الملك فرسا (٤) واهدى عمرو بن العاص
الى معاوية ثلاثين فرسا من سوابق خيل مصر . (٥)

ولما افضت الخلافة الى المتوكل اهدى اليه الناس على
اقدارهم ، واهدى اليه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة
ووصيف . وفي الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل
من اهل الطائف قد ادبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم ،
وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس . فحسن موقعها
من المتوكل ، وحلت من قلبه محلا جليلا . (٦)

(١) وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ٢٠٥

(٢) زهر الاداب ، ج ٢ ، ١١

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢٠

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ١٩

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢١

(٦) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٩٥

وبعث الحسن بن وهب الى المتوكل بجام من ذهب فيه النفا
مثقال من عنبر . (١)

واهدى اليه خالد المهلبى فى يوم نيروز ثوب وشى منسوجا
بالذهب ومشمة عنبر عليها فصوص جوهر مشبك بالذهب
ودرعا مضاعفة وثوبا بغداديا فأعجبه حسنه ، ثم دعا به فلبسه
وقال : يامهلبى انما لبسته لاسرك به !

فقال : ياامير المؤمنين لو كنت سوقة لوجب على الفتيان
تعلم الفتوة منك ، فكيف وانت سيد الناس ؟ (٢)

وذكروا انه كان للمتوكل جارية اسمها شجرة الدر . وكان
يميل اليها ميلا كبيرا ويفضلها على سائر حظاياها . فلما كان
يوم المهرجان اهدى اليه حظاياها هدايا نفيسة واحتفلن فى
ذلك . فجاءت شجرة الدر بعشرين غزالا تربية ، على كل
غزال خرج صغير مشبك حرير فيه المسك والعنبر والغالية
واصناف الطيب ، ومع كل غزال وصيفة بمنطقة ذهب ، وفى
يدها قضيب ذهب فى رأسه جوهرة . فقال المتوكل لحظاياها
وقد سر بالهدية : « ما فيكن من تحسن مثل هذا وتقدر
عليه ! » فحسدنها وعملن على قتلها بشيء سقينه لها
فماتت . (٣)

(١) المحاسن والاضداد ، ص ١٨

(٢) المحاسن والاضداد ، ص ١٨١

(٣) مطالع البدور ، ج ٢ ، ص ١٣٦

والى جانب هذه الالوان من الهدايا كانوا يهدون الطين .
قال الشعالي : وكانوا يهدون طين نيسابور ، وهو طين الاكل
لا يوجد مثله فى الارض ، يحمل الى اداني البلاد واقاصيها ،
ويتحف به الملوك ، وربما بيع الرطل منه بدينار . (١)



اما هدايا الفصد ، فلا تخرج عما ذكرت من قبل ، فكانوا
يهدون الجواري والصواني والاقداح والجامات البلور
والشمامات والعنبر المسك .

فقد فصد الرشيد فأهدى اليه اليزيدي جام بلور ،
وشمامات عالية ، وكتب اليه : يا امير المؤمنين ، تفاعلت بالشرب
بالجام بجمام النفس ودوام الانس ، والغالية للغلو فى السرور
والازدياد من الحبور . (٢)

وافتصد المأمون مرة فأهدى اليه ابراهيم بن المهدي جارية
معها عود ، ورقعة فيها :

عفوت وكان العفو منك سجية

كما كان معقودا بمفرقك الملك (٣)

وفى مرة ثانية اهدت اليه « رباح » اترجة عنبر ، مكتوب
عليها بماء الذهب بيتين من الشعر اعجب بهما ، فكافأها
بمال كثير . (٤)

(١) ثمار القلوب ، ص ٤٢٨

(٢) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤

(٣) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤

(٤) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤

وافتصد المعتصم فأهدت اليه « شمائل » صينية عقيق عليها قدح ، اسبل عليهما منديل مطيب ، مكتوب عليه بالعنبر ابيات شعر رقيق ، فلما قرأه امر بأحضار اسحق بن ابراهيم ، وامره ان يجعل له لحنًا ، وامر مسرورا باخراجها من وراء الستارة ، ثم لم يزل يردد هذه الايات حتى احكمتها شمائل وغنت ، فكان سقط الدر يتناثر من فيها . وامر لاسحق بمال ، وللجارية بخمس وصائف وخمسة آلاف دينار . (١)

وافتصد ابراهيم بن المهدي فأهدى اليه اسحق بن ابراهيم الموصلي صوتا من غنائه ، وارسل غلامه فغناه به . (٢)

وربما طلب الخليفة من خاصته ان يهدوه ، كما فعل المتوكل . فقد افتصد ، فقال لخاصته وندمائه : اهدوا الي يوم فصدي . فاحتفل كل واحد منهم في هديته .

واهدى اليه الفتح بن خاقان جارية لم ير الراؤون مثلها حسنا وظرفا وكمالا . فدخلت ومعها جام ذهب في نهاية الحسن ، ودن بلور لم ير مثله فيه شراب يتجاوز الصفات ، ورقعة فيها تهنئته بالشفاء ، فاستظرف المتوكل ذلك واستحسنه . (٣)

ولعل الطف هدية اهديت في يوم قصد ، هي هدية ابي

(١) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤

(٢) الاغاني ، ج ٥ ، ص ٦٦

(٤) عيون الانباء ، ص ١٨١

دلف ، فقد افتصد عبد الله بن طاهر ، فجمع أبو دلف ما أصاب في السوق من الورد وأرسله هدية له . (١) وقد أوردت هذا الخبر لطرافته ، رغم أن ابن طاهر ليس من الخلفاء .



أما هدايا العمال والولاة والملوك للخلفاء فكثيرة . فكان كل وال يتفنن بإرسال الهدايا للخليفة ابتغاء مرضاته . فقد وجه يعقوب ابن الليث صاحب خراسان إلى المعتمد هدية من جملتها عشر بزاة منها باز أبلق لم ير مثله ، ومائة مهر ، وعشرون صندوقا على عشرة بغال ، فيها طرائف الصين وغرائبها ، ومائة عود من مسك ، ومائة من عود هندي ، وأربعة آلاف درهم . (٢)

ولما قدم ابن الجصاص من مصر على المعتضد مرسلا من خمارويه كان معه هدايا من العين عشرون حملا على بغال ، وعشرة من الخدم ، وصندوقان فيهما طرائف ، وعشرون رجلا على عشرين نجيبا بالسروج المحلاة ، ومعهم جرار فضة ، وعليهم اقبية ديباج ، وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منها خمسة بذهب والباقي بفضة ، وزرافة . (٣)

وقد يرسل إلى الخليفة كل غريب . ففي سنة ٢٩٩ وردت

(١) المحاسن والاضداد ، ص ١٨٤

(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ص ١٣٥

(٣) المنتظم ، ج ٥ ، ص ١٣٨

من مصر هدايا منها كما ذكر الصولي تيس له ضرع يحلب
البلسن .

ووردت رسل احمد بن اسماعيل بهدايا منها مذبة مرصعة
بفاخر الجوهر وتاج من ذهب مرصع بجوهر له قيمة كبيرة .
ومناطق ذهب مرصعة وربعة ذهب مرصعة . (١)

ووردت هدايا ابن ابي الساج اربعمائة دابة ، وثمانون الف
دينار ، وفرش ارمني لم يرمثله ، في بساط طوله سبعون ذراعا
في عرض ستين ذراعا ، عمل في عشر سنين . (٢)

وفي سنة ٣٠٥ ، زمن المقتدر ، ورد على السلطان هدايا
جديدة من احمد بن هلال صاحب عمان ، وفيها انواع الطيب ،
ورماح ، وطرائف من طرائف البحر وطائر اسود يتكلم بالفارسية
والهندية ، افصح من البغاء ، وظباء سود . (٣)

وفي سنة ٣١٠ هـ وصلت هدية ابن المادرائي الحسين بن
احمد من مصر وهي بغلة ومعها فلو ، و غلام طسويل اللسان
يلحق طرف لسانه انفه . (٤)



وكان ملوك الروم والفرنجة يهدون الى الخلفاء العباسيين
الهدايا العظام توددا وتحببا . فقد اهدى ملك الروم الى

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ١١٠

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق ، ج ٦ ، ١٤٥

(٤) المصدر السابق ، ج ٦ ، ١٦٧

المأمون مائتي رطل مسك ، ومائتي جلد سمور . فقال المأمون :
ضاعفوها ليعلم عز الاسلام .

واهدت ملكة الفرنجة الى المكتفي بالله سنة ٢٩٣ هـ
خمسين سيفاً ، وخمسين رمحاً ، وخمسين فرساً ، وعشرين
ثوباً منسوجاً بالذهب ، وعشرين خادماً صقلياً حنماً ، وعشرة
كلاب كبار لانطيقها السباع ، وستة بازات ، وسبعة صقور ،
ومضرب حرير . (١)

وفي سنة ٣٢٦ هـ ورد كتاب من ملك الروم الى الرازي .
وكانت الكتابة بالرومية بالذهب ، والترجمة بالعربية بالفضة ،
بطلب الهدنة . وفيه : « لما بلغنا مارزقته ايها الاخ الشريف
الجليل من وفور العقل وتمام الادب واجتماع الفضائل اكثر
ممن تقدمك من الخلفاء ، حمدنا الله تعالى . . . وقد وجهنا
شيئاً من اللطاف ، وهي اقداح وجرار من فضة وذهب
وجوهر ، وقضبان فضة ، وستور ، وثياب سقلاطون ،
ونسيج ، ومناديل ، واشياء كثيرة فاخرة . (٢)



فهذه كلها ألوان من الهدايا ، فيها تبيان لهذه العادة
الاجتماعية التي كان لها شأن في العصر العباسي ، الحافل
بالعجائب والفرائب .

(١) اللخائر والتحف (مخطوط)

(٢) المنتظم ، ج ٦ ، ٢٩٣

مآكل الخلفاء العباسيين

لعل الملوك والخلفاء ، من اشد الناس حرصا على انتقاء مالذ من الطعام وطاب . فهم يتخيرون اللذ من كل شيء . ومسا عليهم أن اتعبوا غيرهم او انفقوا الاموال الطوال في سبيل ذلك . والخلفاء العباسيون ، كانوا يعنون بهذا الامر كل العناية ، وكانوا يحرصون على الا يفوتهم من لذائد المآكل والثمار شيء . فكانت هذه اللذائد تحمل من الاقطار الى قصورهم في بغداد ليتمتعوا بها . وكانوا يفرضون ان يحمل اليهم مع خراج كل بلد ما حسن فيه من زهر او مآكل او ثمر . فكان يحمل مع خراج الري (١) الرمان والخوخ المقدد . ومن اصبهان (٢) والموصل (٣) العسل والشمع . ومن الكوفة البنفسج . ومن جرجان (٤) النرجس . ومن الصيمرة (٥)

(١) الري مدينة مشهورة في ايران . انظر معجم البلدان ج ٢ ، ٨٩٢

(٢) انظر معجم البلدان ، ج ١ ، ٢٩٢

(٣) انظر المصدر السابق ، ج ٤ ، ٦٨٢

(٤) انظر المصدر السابق ، ج ٢ ، ٤٨

(٥) انظر المصدر السابق ، ج ٣ ، ٣٤٢

الأترج . وكان يحمل من مكة النارج . ومن طبرستان (١)
والمدينة والحجاز الى الخليفة العنبر والزبيب . ومن
الاهواز (٢) ثلاثون ألف رطل من السكر . ومن فارس (٣)
ماء الورد ، والزبيب الاسود والرمان والسفرجل والتين . اما
دمشق فكانت ترسل الى الخليفة التفاح . وكان المأمون معجبا
به . يؤخذ اليه منه ثلاثون ألف تفاحة مع الخراج . (٤)

وكانوا اذا اشتهوا شيئا ولم يكن له نصيب في الخراج
ارسلوا يطلبونه . فقد كانوا يطلبون الوان باللحوم والطيور ،
ولو بعد مكائها ، فتأتيهم على البريد . ينفقون في ذلك الاموال
الكثيرة ليتمتعوا بالطيبات من المأكول والثمار . (٥)

ولعل من اشد مظاهر الحضارة في هذا العصر تعدد الالوان
التي كانت تهيأ من الطعام ، وقد كان عدد هذه الالوان يبلغ ،
في بعض الاحايين ، مبلغا ، ماعرف ولا سمع بمثله . حدث
جعفر بن محمد - وكان احد العشرة الذين اختارهم المأمون
لمجالسته ومحادثته من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم - قال :
تغدينا يوما عند المأمون . فظننت انه وضع على المائدة اكثر

(١) انظر معجم البلدان ، ج ٣ ، ٥٠١

(٢) انظر معجم البلدان ، ج ١ ، ٤١٠

(٣) انظر معجم البلدان ، ج ٢ ، ٨٣٥

(٤) انظر فيما يتعلق بهذا الخبر : نمار القلوب ، ص ٤٢٢ ، ٤٢٦

٤٢٧ - ولطائف المعارف (ليدن) ص ٦٥

(٥) نمار القلوب ، ص ٤٢٨

من ثلاثماية لون . وكلما وضع لون ، نظر اليه المأمون وقال :
هذا يصلح لكذا ، وهذا نافع لكذا . (١)

رمهما يكن امر هذا الظن الذي ظنه هذا الفقيه ، فلا بد
ان يكون عدد ألوان الطعام كبيرا . وقد كنا نرتاب بالخبر ،
لولا ان ذاكره هو ابن طيفور ، ولم يؤرخ المأمون احد مثله .

ويؤيد ما ذكرنا تكثير الخلفاء ألوان الطعام مارواه المعودي .
فقد ذكر ان الرشيد كان ينفق على طعامه في كل يوم عشرة
آلاف درهم . وانه ربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لونا من
الطعام . (٢) وكان يتخذ للقاهر اثنا عشر لونا . (٣)

ولا شك ان اثر الفرس والروم في الاطعمة العباسية كان
واضحا . فقد عرفوا طرائف الطعام الفارسية ، وطرائقه
الرومية ، واقبلوا على اللحوم والبقول ، وعلى البوارد
والحلويات . وعكفوا على التنوع والتفنن في التحضير مما
لاعهد للعرب الاوائل فيه .

على ان هؤلاء الخلفاء ، كانوا لا يقدمون على هذه المآكل الا
بعد مشورة اطبايهم ، ولا يتناولونها الا بحضورهم ، لان ذلك
ادعى الى السلامة ، وآمن من مغبة النهم .

(١) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ٥٧

(٢) حضارة الاسلام في دار السلام ، ص ١١٠

(٣) الحضارة الاسلامية لتز ، ج ١ ، ٢٤٧

ويحدثنا ابن ابي اصيبعة أن الرشيد كان يطلب جبرائيل
المنطيب ليحضر اكله . (١) وكان الآمين لا يأكل ولا يشرب
إلا بإذن ابن بختيشوع (٢) وكان بعض بني هاشم لا يتناولون
اطعمتهم إلا بحضرة يوحنا بن ماسويه . (٣) كان يقف على
رؤوسهم ومعه البراني بالجوارشقات المسخنة الطابخة الموقية
للحرارة الفريزية في الشتاء . وفي الصيف بالاشربة الباردة
الطابخة الموقية والمعاجين . (٤)



فلننظر الآن فيما كانوا يرغبون فيه .

نلاحظ أن أكثر ميل ملوك بني العباس كان إلى اللحوم ،
وخاصة لحوم الدجاج . يقول الجاحظ : « وملوكننا واهل
العيش منا لا يرغبون في شيء من اللحمان رغبتهم في الدجاج .
وهم يقدمونها على البط والنواهض والدرج ، وعلى
الجداء . . . وهم يأكلون الرواعي كما يأكلون السمات . » (٥)

أما رغبتهم في الدجاج فذلك لأنه أكثر اللحوم تصرفا . فهي
تطيب شواء ، ثم حارا وباردا ، ثم تطيب في البز ماورد - وهو
طعام من البيض واللحم ، او من رقاق ملفوفة بلحم - ثم تطيب

(١) عيون الأنباء ، ج ٢ ، ص ٢٤

(٢) القنطي ، ص ٦٨ (السمادة)

(٣) عيون الأنباء ، ج ١ ، ص ١٢٨

(٤) القنطي ، ص ٢٤٦

(٥) الحيوان (هارون) ج ١ ، ص ٢٣٣

في الهرائس وتطيب طبيخا ، وان قطعها مع اللحم ، دسم ذلك اللحم ، وتصلح للحشاوي وسمينها يقدم في السكباجة على البط . (١)

وكانوا يأكلون في الشتاء من اللحم ماكان حارا مهيجا . قال المأمون لابي كامل الطباخ يوما : « اتخذ لنا رؤوس حملان تكون غداءنا غدا . ثم التفت الى علي بن هشام ، وكان حاضرا : ، فقال ان من آيين الرؤوس ان تؤكل في الشتاء خاصة ، وان يبكر آكلها عليها ، وأن لا يخلط بها غيرها ، ولا يستعمل بعقبها الماء . » (٢)

وكان المأمون يميل الى لحم الغنم . قال للحسن بن سهل يوما : نظرت في اللذات فوجدتها كلها مملولة ، سوى سبعة ، قال الحسن : وما السبعة يا امير المؤمنين ؟ قال : خبز الحنطة ولحم الغنم ، والماء البارد . . وعد اربعة غيرها . (٣)

وقد يعجب بعض الخلفاء بالملحات والمقورات . فقد خرج المقتدر يوما الى بستان الخلافة ، فطلب طعاما ، فلم يحضر طعامه فقدم له ملاح جونة من خيازر (ج خيزران) ، فيها جدي بارد ، وسكباج مبرود ، وبزماورد ، وادام ، وقطعة

(١) الحيوان ، ج ٢ ، ٢٥٠ ،

(٢) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٠٥

(٣) المستطرف ، ج ١ ، ١١١

مالح ممقور ، وارغفة سميد جيدة . فاستنظفها واكل منها
واستطاب المالح والادام ، فكان اكثر اكله منه . (١)

وعلى ذكر البزماورد نقول انه كان يسمى في العصر العباسي
لقمة الخليفة ، ولقمة القاضي ، ونرجس المائدة . (٢) وهذه
التسميات تدلنا على ان الخلفاء والقضاة كانوا يأكلونه
ويحلون به موائدهم .

وهذا البزماورد ، كان يتخذ من اللحم والبيض في بغداد .
ويذكر لنا الجاحظ ان اهل خراسان كان يعجبون باتخاذ
البزماورد من فراخ الزنابير . (٣)

ويبدو أن اتخاذ البزماورد من فراخ الزنابير ليس بعجيب
فقد كان الفضل بن يحيى يوجه خدمه في طلب فراخ الزنابير
ليأكلها ، وفراخها ضرب من الذبان الكبار ، كما يقول
الجاحظ . (٤)

وكانوا يرغبون في السكباج . ويسمونه مخ الاطعمة ، وسيد
المرق . ولقد تشكى خليفة يوما لجارية له من هذا اللون من
الطعام ، فقال لها : الى كم سكباج ؟ قالت : هو مخ الاطعمة ،
لايكره بارده ولا يمل حاره ، بل يستطاب في الحضر ، ويتزود
منه في السفر ، ولا يؤثر عليه الضيف في الشتاء والصيف . (٥)

(١) نشوار المحاضرة ، ج ٢ ، ١٥٢ ،

(٢) شفاء الغليل ، ص ٩٨

(٣) الحيوان ، ج ٤ ، ٤٤ ،

(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ٤٥ ،

(٥) ثمار القلوب ، ص ٤٩٠

وكانوا يعنون بالسكرارج والبقول ويقولون : لكل شيء حلية
وحلية الخوان السكرجات والبقول . (١) ويقدرّون الارز حق
قدره ويقولون : الارز غذاء صحيح . (٢)

وكانوا يأكلون السنة السمك . يعمدون الى السمك
فينزعون السنّته ويأكلونها . ولقد دعا ابراهيم بن المهدي
الرشيد مرة فاعد له طبقا من السنة سمك . وانفق على صحفة
صغيرة منه مبالغ طائلة . (٣)

اما السمك نفسه فكانوا يأكلونه ايضا . وجدير بالذكر انه
كان مرغوبا فيه من النصارى ايضا . فكانوا يأكلونه اكلا ذريعا .
ويحدثنا الجاحظ انه لكثرة اقبالهم عليه كانوا يغفونه على
الناس . حتى تتوخى اياما باعيانها فلا يشتري السمك الا فيها
طلبا للامكان والاسترخاص وهي يوم الخميس ، ويوم السبت
ويوم الثلاثاء . (٤)

ومن المأكّل التي كانوا يعجبون بها البان الطباء . وكان
الرشيد يسر بها . زار جعفر بن سليمان والي البصرة سنة
١٩٦ هـ ، فاحضر له جعفر على مائدته البان الطباء وزبدها ،
فاستطاب طعومها وسر بها . (٥)

(١) ثمار القلوب ، ص ٤٨٧

(٢) مطالع البدور ، ج ٢ ، ٤١ - والقول للرشيد .

(٣) مروج الذهب (بهية) ج ٢ ، ٢٧٩

(٤) الحيوان ، ج ٤ ، ٤٣١ - ٤٣٣

(٥) مطالع البدور ، ج ٢ ، ٥٩

وثمة لون آخر كانوا يشتهونه ، هو كبود الدجاج . ويحدثنا
التنوخى ان ابراهيم الحرانى الصابىء الطيبىء كان بين يدي
الموفق يوما ، فقال : انا اشتهى شهوة منذ سنتين ، واستقبح
ان اطلبها . وقد عن لى الساعة مواضعتك على طلبها !

قال ابراهيم : قلت يا امير المؤمنين مره !

قال : ويحك انا والله منذ سنين كثيرة اشتهى كبود الدجاج
وقوانصها مطبحة ، واستقبح ان اطلبها . واريد اذا قدمت
المائدة ، وجلست معى للاكل ، ان تشتهى ذلك على وتشير به
من طريق الطب ، لاتقدم اليهم باتخاذها ، بشيء يسير ، فيصير
ذلك القدر رسما فى كل يوم ، لايؤثر عليهم قدره .

قال : فعجبت من كرمه وفرط حيائه من خدمه حتى
يلفق الحيلة . وقدمت المائدة ، فجلس يأكل وحده ، وجلست
مع الندماء آكل على مائدة بين يديه . فلما اكل بعض اكله
قلت : لم لا يأمر امير المؤمنين بان يتخذ له شيء يسير فى
زبديات من كبود الدجاج المسمن وقوانصه بالبيض ؟

فاصلح له زبديفة من كبود الدجاج وقوانصها وصار
رسما جاريا . (١)

اما الخبز فكانوا ينوعونه ، ويتخيرون اطيبه . وكان
الرشيد يأكل يومين متواليين خبز السميد ، والثالث الحوارى

(١) نشوار المحاضرة ، ج ٢ ، ٤٧

والرابع الخشكار ، والخامس والسادس خبز الارز النقي من
خبز التنور . (١)

ويبدو ان الخبز وكثرته كان يؤثر في نفس بعض الخلفاء ،
فلقد سأل الواثق أحمد بن ابي دؤاد يوما : ماجمال الموائد !
فقال : كان يقال جمالها كثرة الخبز عليها !

فقال : اصبحت واحسنت ، فان اختلفت الالوان ، وكان
الخبز كثيرا شهد اصاحبها بالشرف . (٢)



فهذه بعض الالوان التي كان الخلفاء يرغبون فيها من
المآكل وهي الوان فيها الغريب والنادر . وكانوا ينفقون في
سبيل الحصول على هذه المطاعم الاموال الكثير . وقد ذكروا
ان الرشيد كان ينفق على طعامه كل يوم عشرة آف درهم .
(٣) وان نفقات المطابخ والمخابز بلغت في القرن الرابع ، في
دار الخلافة عشرة آلاف دينار في الشهر . (٤) وهذا المبلغ
دليل على كثرة الانفاق . وان كان اكثر هذا من باب الاسراف .
ويحدثنا التتوخي ان المعتضد طلب يوما لونا من طعام ، فقيل
له ماعمل اليوم ، فانكر ذلك وقال : يجب الا يخلو المطبخ من كل
شيء حتى اذا طلب لم يتعذر . ووقع الى ديوان النفقات باقامة

(١) مطالع البدور ، ج ٢ ، ٤٢

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ٤١

(٣) مروج الذهب (بولاق) ج ٢ ، ٢٤٢

(٤) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ، ج ١ ، ٢٤٧

ذلك اللون إلى ان يرد التوقيع بقطعه . فكان يعمل وينفق عليه دراهم كثيرة ولا يحضر المائدة توقعا ان يطلبه ، وهو يصنع . وكان هذا اللون جزورية ، وكان الطباخ يذبح في كل يوم قلو صا . (١)

على انه اذا كان بعض هؤلاء الخلفاء ينفقون الاموال على الدجاج وكبود الدجاج وعلى السنة السمك والجداء وغير ذلك ، ويحرصون كل الحرص على التلذذ بها ، فقد كان بعضهم الآخر ، كالقاهر ، يستكثر صنوف الطعام ان توضع امامه ، ويقتصر على مايكفيه . (٢) وكان آخرون كالمهتدي لا يأكلون غير الخبز النقي ومعه الملح والخل والزيت . (٣)



ويجب ان نذكر هنا انه كان في قصر الخلافة صاحب طعام وشراب . وقد ذكر ابن ابي الربيع الشروط التي ينبغي ان تكون فيه ، والاعمال التي ينبغي ان يقوم بها . قال :
« واما صاحب الطعام والشراب ، فينبغي ان يكون ثقة مؤتمنا عاقلا حرا مجلا للملك ، مجتهدا في رضاه ، وأن يتلطف في منع الملك عن بعض المطاعم التي لاتوافقها ، ويعرفه وجهه المصلحة في تركها . وأن لا يعرض عليه طعاما عرضه مرة قبلها ، وينبغي ان يتصفح الطعام والشراب في كل ساعة ، حتى الملح

(١) نشوار المحاضرة ، ج ٢ ، ١٥٢ ،

(٢) الصابي ، ص ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٥٢

(٣) أخبار الخلفاء للسيوطي ، ص ١٤٥

والخل وأشباههما . وليكثر مراعاة الآلات ، فان رائحة الطعام وجودة عرفه وحسن تنضيجه ، يفتق الشهوة . ويجب ان يكون خبيرا بتنصيب الالوان وترتيبها واوقاتها ليختار لكل فصل ما يليق به . وينبغي ان يكون عارفا بما يجلب من البلاد من المطاعم والمشارب ، والجيد منها والمفشوش . وان يكون ذا علم بأدب المجلس ، بصيرا بتعبئته ، وبحسن اوانيه . ويجب ان يكون عالما بما يهوى الملك من الاطعمة والاشربة فيبالغ في اتخاذه وتجويده . « (١)



على ان بعض هؤلاء الخلفاء ماكانوا يقنعون بان يكون لديهم صاحب طعام يدبر امر طعامهم ، او طهارة كما يشتهون ، بل كانوا انفسهم ذوي معرفة بالطبخ ، ومهارة فيه ، وعلم بتركيب الاطعمة ، واثار بعضها في بعض .

ذكر الشابشتي ان المأمون جلس في بعض الايام وامر بأن تحضر اللحوم والحيوان وما تحتاج اليه من آلة الطبخ ، وقال للندماء : ليطنخ كل واحد منكم قدرا !

وطبخ هو ايضا قدرا ، وطبخ اخوه ابو اسحق قدرا .
ففاحت لهما روائح غلبت على روائح قدورهم طيبا وعطرية

(١) سلوك المالك في تدبير الممالك ، ص ١٢٦

فحجبوا من ذلك، وعبادة (١) حاضر . فحسده فقال : ان اردت ان تزيد في طيب قدرك فصب فيها سكرجة كامخ !

فأخذ سكرجة كامخ وصبها في القدر . فساعة صب السكرجة فاحت لها روائح منتنة . فقال المأمون : ويلكم ماهذه الروائح المنتنة ؟

فقال عبادة : رائحة قدر اخيك الطباخ !

قال : ماذا طرحت فيها حتى عادت بعد الطيب الى هذه الرائحة ؟

فقال : سكرجة كامخ اشار بها عبادة !

فقال : اما علمت انك اذا ادخلت جسما ميتا على جسم حي افسده ؟

فحقدها المعتصم على عبادة . (٢)

وذكر المسعودي ان المعتصم جلس في الجوسق حمكا يوما في تمييز طعام طبخه ندماءؤه ، فكان يأكل من كل قدر ويبين ميزتها ويصفها .

(١) هو عبارة المخنت . كان أبوه من طباطبي المأمون
(٢) الديارات (دبر الشياطين) . وانظر عن مهارة المأمون في الطبخ ما ذكره
المسعودي . مروج ، ج ٩ ، ١٨ (باريس)

الخلفاء العباسيون والتجسس

شغف الخلفاء العباسيون بالتجسس ومالوا إليه . وقد كان لابد لهم من تسقط الاخبار والحقول بها لئلا ينسبوا الى الضعف والغفلة أو يجترىء عليهم الأعداء والاصحاب . فان من أخلاق الملك اليقظ السعيد ، على قول الجاحظ ، البحث عن سرائر خاصته وعامته واذكاء العيون عليهم ، والبحث عن كل خفي دفين . (١)

وبغداد ، وما كان فيهما من أخلاط المخلوقات وأنماط الناس ، وما انتشر فيها من آراء سياسية وعصبية ، وما ظهر فيها من ميول شعوبية وعلوية وهاشمية ، كل هذا دفع الخلفاء الى التجسس ولم الاخبار ، ليحفظوا ملكهم ويكونوا على بينة مما يجري .

وقد ذكروا ان الرسول عليه السلام ، كان ، ليقظته ، يرسل الجواسيس والعيون يتجسسون اخبار أعدائه المشركين . ولم يكن عصر النبي عليه الصلوات ، كالعصر العباسي ، ولا كان

(١) التاج في أخلاق الملوك ، ص ١٦٧

المجتمع اذ ذلك كالمجتمع يومئذ . فليس من الغريب ان يشفق
العباسيون بالتجسس ، فهو ضرورة من ضرورات الملك .

كان التجسس يجري على طريقتين : ظاهرة وخفية . أما
التجسس علانية فكان يقوم به أصحاب الأخبار والبريد .
وكانوا منتشرين في كل مكان . وكان عليهم ان يعرفوا حال
العمال ، عمال الخراج ، والضياغ ، وان يتتبعوا ذلك تتبعاً
شافياً ، ويستشفوه استشفافاً بليفاً ، وأن ينهوه على حقه
وصدقه ، وأن يعرفوا حال عمارة البلاد ، وما هي عليه من
الكمال والاختلال ، وما يجري في أمور الرعية فيما يعاملون به
من الانصاف والجود ، والرفق والعسف ، فيكتبوا به مشروحاً .
وأن يعرفوا ماعليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم
وطرائقهم . وان يعرفوا حال دار الضرب وما يضرب فيها من
العين والورق . وما يلزمه الموردون من الكلف والمؤن . وفي
كل ما ينهونه ، ينبغي أن يكونوا صادقين ، واثقين مما ينهون .
فاذا ورد كل ذلك على الحضرة سلم الى صاحب ديوان الانشاء
ليحمله الى حيث يطلع عليه الخليفة ، ويأمر بما يرى . ثم
يكتب للآفاق بما ينبغي . (١)

فهؤلاء ، كانوا جواسيس رسميين . أما الجواسيس
الذين لا يظهرون أنفسهم ، ولا يعرفهم أحد ، فكانوا أنواعاً

(١) الخراج لندامة (دغوبه) ، ص ٢٨ - ٢٢ و ١٨٤ ، ١٨٥

منوعة ، تفنن الخلفاء في استخدامهم . وكان فيهم « الطفل والمرأة والمحتاج والزمن وابن السبيل . . . »

اول من عني بالتجسس الخفي من الخلفاء : ابو جعفر المنصور ، « فقد كان يشتري رقيقا من الرقيق ، ثم يعطي الرجل منهم البعير ، والرجل البعيرين ، فيهيمون ، او يردون الماء كالمارين وكالضالين فيتجسسون . . . » (١)

ويحدثنا الطبري ان ابا جعفر أتى مرة بأحد جنده ، فقال له : اخف شخصك واستر امرك واثني في يوم كذا في وقت كذا !

فأتاه ، فقال له : ان بني عمنا هؤلاء قد أبوا الا كيدا لملكنا واغتيالا له . ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون اليهم بصدقات أموالهم ، والظاف من الظاف بلادهم . فأخرج بكسى والظاف وعين حتى تأتيهم متنكرا بكتاب عن أهل هذه القرية . ثم تسبر ناحيتهم . فان كانوا قد نزعوا عن رأيهم فأحبب والله بهم وأقرب . وان كانوا على رأيهم علمت ذلك وكنت على حذر . فأشخص حتى تلقى عبد الله بن حسين متقشفا متخشعا ، فان جهلك ، وهو فاعل ، فاصبر وعاوده . فان عاد فاصبر حتى يأنس بك وتلين لك ناحيته . فان ظهر لك مافى قلبه فاعجل علي !

(١) الطبري ، حوادث سنة ١٤٤

فشخص الرجل حتى قدم على عبد الله فلقيه بالكتاب ،
فأنكره ونهره ، وقال : ما عرف هؤلاء القوم !

فلم يزل ينصرف ويعود حتى قبل كتابه والطفاه وانس
به ، فسأله الجواب . فقال : اما الكتاب فلا اكتب لاحد .
ولكن انت كتابي اليهم . فأقرئهم السلام ، واخبرهم ان ابني
خارجان لوقت كذا وكذا .

فعاد الجاسوس الى ابي جعفر واخبره . (١)

وحدث صاحب عذاب ابي جعفر قال : دعاني أبو جعفر
ذات يوم ، واذا بين يديه جارية صفراء ، وقد دعا لها بأنواع
العذاب ، وهو يقول لها : ويلك اصدقيني ، فوالله ما يريد الا
الإلفة . ولئن صدقتني لأصلن الرحم ، ولاتابعن البر اليه !
واذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله وهي تقول : ما عرف
مكانه .

ودعا بالدهق وامر به فوضع عليها . فلما كادت نفسها ان
تتلف قال : امسكوا عنها !

وكره مارأي . وقال لأصحاب العذاب : مادوآء مثلها اذا
صار الى مثل حالها ؟

قالوا : الطيب تشمه ، والماء البارد يصب على وجهها ،

(١) الطبري ، حوادث سنة ١٤٤

وتسقى السويق . فأمر لها بذلك ، وعالج بعضه بيده ، حتى
أفاقت ، وأعاد عليها المسألة . فأبّت إلا الحجود . فقال لها :
أتعرفين فلانة الحجامة ؟

فأسود وجهها وتغيرت . فقالت : نعم يا أمير المؤمنين ، تلك
في بني سليم .

قال : صدقت ، هي والله أمتي ، أبتعتها بمالي ، ورزقي
يجري عليها في كل شهر . أمرتها ان تدخل منازلكم وتحجمكم
وتعرف أخباركم . أو تعرفين فلانا البقال ؟

قالت : نعم ، هو في بني فلان !

قال : هو والله مضاربي بخمسة دنانير أمرته ان يبتاع بها
كل ما يحتاج اليه من البيوع . فأخبرني ان أمة لكم في يوم
كذا من شهر كذا ، عند صلاة المغرب ، جاءت تسأله حناء
وورقا ، فقال لها : ماتصنعين بها ؟

فقالت : كان محمد بن عبد الله في بعض ضياعه بناحية
البيقع ، وهو يدخل الليلة . فأردنا هذا لتتخذ منه النساء
ما يحتجن اليه عند دخول أزواجهن من الغيب .

قال : فأسقط في يدها ، وأذعنت بكل ما اراد . (١)

وهذه القصة ، والتي قبلها ، تبينان لنا كيف سخر أبو

(١) المحاسن والساوى للبيهقي (شوالى) ، ص ١٦٠

جعفر أحد جنده ، وأمه ، وبقالا مضاربا له للتجسس
وجمع الاخبار .

ولعلك تعلم جبه تتبع الأسرار مما ساقصه عليك . قالوا :
ان أبا جعفر قال ذات يوم لأصحابه : ما حوجني أن يكون
على بابي أربعة نفر لا يكون أعف منهم ، وهم أركان الدولة ،
ولا يصلح الملك الا بهم . أما أحدهم فقاض لاتأخذه في الله
لومة لائم . والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من
القوي ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية !
ثم عض المنصور على اصبعه السبابة ثلاث مرات وهو
يقول في كل مرة : آه ، آه !

قيل : ماهو يأمر المؤمنين ؟

قال : صاحب برید يكتب خبر هؤلاء على الصحة . (١)



وكان الرشيد من أشد الملوك بحثا عن أسرار رعيته .
وأكثرهم بها عناية ، وأحزمهم فيها أمرا (٢) . وكان يتسقط
أخبار الهادي قبل ان يصبح هو خليفة . فقد كان مسرور
الكبير في خدمة المهدي ، وكان الرشيد حفا به محسنا إليه .

(١) التمدن الاسلامي ، ج ١ ، ٢٢١

(٢) التاج ، ص ١٧٠

فلما انتقل امر الخلافة الى الهادي قال له الرشيد : اخي قوي
الشراسة ، وانا اخاف ايقاعه بي وجمع الناس على بيعة ابنه
بعده ، وانا على غاية الثقة بك ، فاعدل اليه ، وكن له
عيناً عليه . .

فتقدم مسرور عند الهادي حتى تولى ستر بيت خلوته .
فكان ينهي الي الرشيد كل كلمة من كلماته ، وفعل . (١)

وكتب الأدب والتاريخ مترعة بأخبار تتبعه أسرار رعيته ،
حتى كان ذلك يدفعه الى اخفاء شخصه ، والطواف مع جعفر
بن يحيى فى الأسواق وبين الاحياء ليتسقط الاخبار ويعرف
ما يدور بين الناس من الاحاديث ويستطلع ما لا يصل
اليه خبره . (٢)

ولم يقنع بأسرار رعيته ، بل وكل عيوناً على ولديه . فكان
مسرور الخادم رقيب المأمون ، وكان جبرائيل بن بختيشوع
رقيب الامين . (٣)

وعلى نحو هذا كان المأمون فى أيامه . ذكر ابو الفرج أنه
لما تولى الخلافة وأتى بغداد ، كان يتجسس على ابراهيم بن

(١) المكافاة وحسن العقبى (محمود شاكر) ، ص ٦٣

(٢) الاغانى مثلاً ، ج ٦ ، ١٣٧

(٣) الكامل لابن الاثير ، ج ٦ ، ٨٣

المهدي . فالزمه رجلا ينقل اليه كل مايسمعه من لفظه جدا
أو هزلا . (١)

ويسوق الجاحظ دليلا على تتبع المأمون أسرار رعيته
رسالته الى اسحق بن ابراهيم في الفقهاء وأصحاب الحديث
وهو بالشام التي خبر فيها عن عيب واحد واحد ، وعن حالته
واموره التي خفيت ، او اكثرها ، عن القريب والبعيد . (٢)
وقد ذكر صاحب محاضرة الأوائل أنه كان للمأمون الف
عجوز وسبعماية ، يتفقد بهن احوال الناس من الاشقياء ومن
يجبه ويبغضه ، ومن يفسد حرم المسلمين . وكان لايجلس
الى دار الخلافة حتى تأتبه اخبارهن ، وانه كان يدور ليلا
ونهارا مستترا .

وقد يكون هذا الخبر صحيحا فيما يتعلق بارسال
العجائز ، أما عددهن ، وانه كان لايجلس الى دار الخلافة
حتى تأتبه اخبارهن ، فقد يكون فيه مبالغة .

وكان المأمون يعني بمعرفة احوال عماله . فكان يفحص
عنهم وعن دفين أسرار حكامه فحفا شافيا ، فلا يخفى عليه
مايفيد كل امرئ وما ينفق ، وكان من نأى عنه كمن دنا منه
في بحثه وتنقيره . وكان يتتبع احوال القضاة والسوالة

(١) الاغانى ، ج ٢٠ ، ٨٢

(٢) النتاج ، ص ١٧٠

والجند . (١) فذكروا انه سأل يوما جماعة : من انبل من تعلمون نبلا واعفهم عفة ؟

فذكر كل من يراه ، فقال : لا ، ذاك عبد الله بن طاهر دخل مصر كالعروس الكاملة ، فيها خراجها ، وبها أموالها جمعة . ثم خرج عنها . فلو شاء أن يخرج عنها بعشرة آلاف دينار لفعل . وقد كان لي عليه عين ترعاه ، فكتب الي أنه عرضت عليه أموال لو عرضت على لشهرت اليها نفسي ، ولقد خرج عن ذلك البلد وهو بالصفة التي قدمه فيها . الا مائة ثوب ، وحمارين ، وأربعة افراس . (٢)

وحدث بشر بن الوليد قال : كنت عند المأمون ، فقال : ولينا رجلا قضاء الأبله ، وأجرينا عليه في الشهر الف درهم ، وماله صناعة ولا تجارة ولا مال من قبل ، ولا بيت ابتناؤه وولينا رجلا آخر قضاء دمشق وأجرينا عليه الف درهم ، أشار علي به محمد بن سماعة ، فأقام بها أربعة عشر شهرا فوجهنا من يتتبع أمواله في السر والعلانية . ويتعرف حاله ، فأخبر أنه وجد مظاهر من ماله في هذا المقدار من دابة وغلان وجارية وفرش وأثاث قيمته ثلاثة آلاف دينار . وولينا رجلا نهاوند فأقام بها أربعة وعشرين شهرا ، فوجهنا من يتتبع أمواله ،

(١) المحاسن والمساوي ، ص ١٦٤

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٣

فأخبرنا أن في منزله خدما وخصيانا بقيمة ألف وخمسمائة
دينار ، سوى نتاج قد اتخذه . (١)

وذكر إبراهيم بن السندي أنه جالس المأمون ومعه إبراهيم
ابن المهدي . فطفق يحدث عن أهل عسكره ، حتى والله لو
ان رجلا أقام في رحل كل رجل من الجند حولا ، لما زاد على
معرفته ، لشدة تنقيره وتتبعه أخبار الناس . (٢)

فهذه الحوادث كلها ، تدل على حبه التجسس ، ودس
الناس ليتسقطوا له الأخبار ويطاعوه على مايشاء .

وثمة خليفة آخر اولع ببث نلعيون وتسقط الاخبار ،
حتى على وزرائه وخاصته ، وهو المعتضد . وقد أورد
التنوحي قصة تدل على مبلغ شغف هذا الخليفة بالتجسس ،
ومهارة المتجسسين في ذلك العصر . فقد كان القاسم وزيره
يحب الشرب واللعب ، ويخاف ان يتصل بالخليفة خبره ،
فيستنقصه وينسبه الى الصبوة والتهتك والتشاغل في اللذات
عن الاعمال . وكان لا يشرب الا على أخفى وأستر ما يكون .
فخلا يوما مع جوار مغنيات ، ولبسن من ثيابهن المصبغات ،
وأحضر فواكه كثيرة ، وشرب ولعب من نصف النهار الى
نصف الليلة الأخرى . ونام بقية الليلة ، وبكر الى المعتضد
للخدمة على رسمه ، فما أنكر شيئا .

(١) المحاسن والمساوىء ، ص ١٦٣

(٢) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٠٠

وبكر في اليوم الثاني ، فحين وقعت عين المعتضد عليه قال له : يا قاسم ، ما كان عليك لو دعوتنا الى خلوتك والبستنا من نياك المصبغات ؟

فقبل الارض ، واطهر الشكر على هذا التبسط . وخرج وقد كاد يتلف غما لوقوف المعتضد على هذا القدر من امره وكيف لاتخفى عليه مواقفه . فجاء الى داره كئيبا . وكان له في داره صاحب خبير يقال له خالد يرفع له امورها فأحضره وعرفه بما جرى بينه وبين المعتضد ، وقال له : ان بحثت لي عن اخرج هذا الخبر زدت في رزقك واجزتك كذا ، وان لم تعرفه نفيتك الى عمان ، وحلف له على الامرين :

فخرج صاحب خبره من حضرته متحيرا كئيبا لا يدري ما يعمل ، وأخذ يفكر ويحتال ويجتهد .

قال صاحب الخبر : فلما كان من الغد بكرت الى دار القاسم ، زياده تبكير على ماجرى به رسمي ، لفرط سهري وقلقي تلك الليلة ومحبتي للبحث . فجئت ولم يفتح باب دار القاسم بعد فجلست . فأذا برجل يزحف في ثياب المكدين ، ومعه مخللة كما يكون مع المكدين . فلما جاء الى الباب جلس حتى فتح ، فسابقني الى الدخول ، فأولع به البوابون وقالوا : اي شيء خبرك يا فلان ؟ وصفعوه ، فمازحهم وطاببهم ، وشتمهم وشتموه ، وجلس في الدهليز فقال : الوزير يركب اليوم ؟

قالوا : نعم . . . الساعة يركب !

قال : واي وقت نام البارحة ؟

قالوا : وقت كذا !

فلما رأته يسأل عن هذا خمنت انه صاحب خبر ، فأصفت اليه ، ولم أرهم يحفلون بأمره . وهو لم يدع بوابا ممن وصل الى الوزير وممن لا يصل الا سأله عنه . وكان يبداه بأحاديث اخرى على سبيل الفضول ، ثم زحف ، فدخل الى جنب اصحاب الستور ، فأخذ معهم في مثل ذلك ، واخذوا معه في مثله . ثم زحف فدخل الى دار العامة . فقلت لاصحاب الستور : من هذا ؟

قالوا : رجل زمن فقير ابله طيب النفس يدخل الدار ، ويتطايب ، فيهب له الغلمان والمتصرفون !

فتبعته الى ان دخل المطبخ ، فسأل عما اكل الوزير ، ومن كان معه على المائدة ، وفي اي شيء افاضوا . والطباخ والغلمان غلمان صاحب المائدة ، كل واحد يخبره بشيء . ثم خرج يزحف حتى دخل حجرة الشراب ، فلم يزل يبحث عن كل شيء . ثم خرج الى خزانة الكسوة ، فكانت حالته وصورته هذه . ثم جاء الى مجلس الكتاب في الديوان ، فأقبل يسمع ما يجري ، ويسأل الصبي بعد الصبي ، والحدث بعد الحدث ، عن الشيء بعد الشيء ويخلط الجد بالمزاح والتطايب بكلامه ،

والأخبار تنجر اليه وتنساقط عليه . والقطع تجيئه ، وهو يملأ تلك المخلاة .

فلما فرغ من هذا اقبل راجعا . فلما بلغ الباب تبعته ، فرجع حتى جاء الى موضع من الخلد فدخل اليه ، فوقفت انتظره ، فإذا هو بعد ساعة قد خرج بثياب حسان ماشيا . . . فتبعته حتى جاء الى دار قرب دار الخادم الموكل بحفظ دار ابن طاهر فدخلها ، فسألت عنها ، فقالوا « هذه دار فلان الهاشمي ، رجل متجمل » . فرصدته الى وقت المغرب فجاء خادم من دار ابن طاهر فدق الباب . فكلمه من خوخة له ، فصاح به ، ورمى اليه برقعة لطيفة ، فأخذها الخادم وانصرف . فبكرت من سحر الى الدار التي في الخلد ، ومعني غلمان ، فإذا انا بالرجل قد جاء بزيه الذي دخل به داره . فكبسته في الموضع فإذا هو قد نزع تلك الثياب ، ولبس ثياب المكدين التي رايتها عليه اولا ، فحملته وغطيت وجهه وكتمت امره ، حتى ادخلته دار القاسم ودخلت اليه وقصصت عليه الخبر ، فاستدعاه وقال : لتصدقني الخبر اولا ترى ضوء الدنيا ولا تخرج من هذه الحجرة .

قال : تؤمنني ؟

قال : انت آمن !

فنهض وقال : انا فلان بن فلان الهاشمي ، رجل متجمل ، وأنا اتخبر عليك للمعتضد منذ كذا . . . ويجري علي المعتضد خمسين دينارا في الشهر . اخرج كل يوم بالزي الذي لاينكره

جيراني ، فأدخل دارا في الخلد بيدي منها بيت بأجرة ، فيظن
اهلها اني منهم ، ولا ينكرونني لزيبي . فأخرج هنا بهذه الثياب
واتزامن من الموضوع ، والبس لحية فوق لحييتي مخالفة للوني ،
حتى لا يعرفني من لايلقاني في الطريق ، وامشي زحفا الى
دارك ، فأعمل جميع ما عرفت واقتفي اخبارك من غلمانك ،
لا يعرفون غرضي ، ويخرجون لي بالاسترسال مالو بذل لهم
فيه من الاموال الكثير لم يظهره ، ثم اخرج الى موضع من
الخلد فأغير ثيابي ، واعطي ما اجتمع معي في المخلاة للمكدين ،
والبس ثيابي للحسان ، وأعود الى منزلي . فاذا كان المساء
جاءني خادم من خدم ابن طاهر مندوب لهذا ، فأرمني اليه
برقعة فيها خبر ذلك اليوم ، ولا افتح له بابا . فاذا كان آخر
الشهر جاءني فأعطيته الرقعة ويعطيني الجائزة . »

قال صاحب الخبر : فحبسه القاسم اياما ، فحسبه اهله
انه مات . فأقاموا عليه المآتم . فدخل القاسم على المعتضد
فقال له : ابراهيم الهاشمي الترامي ، بحياتي أطلقه وأحسن
اليه . . . وات آمن من بعدها من ان انصب عليك
صاحب خيسر .

فتركه القاسم ، وانقطعت اخباره عن المعتضد . (١)



فهذه قصة رائعة طريفة تدل على مبلغ حب المعتضد تسقط
الأخبار ، ومبلغ مهارة اهل ذلك العصر في الحيلة والبراعة في
التجسس . وهي قصة لا تحتاج الى تعليق ، فما قرأت في
بابها في كتبنا القديمة اشوق منها ولا أحلى .

ومن هذه القصة ، ومن الأخبار التي سردناها من قبل
ترى ما كان للتجسس من شأن عند الخلفاء العباسيين .

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٩٢

ملاهي الخلفاء

افتن الخلفاء العباسيون في اقتناص اللهو . وتخيروا منه الوانا منوعة ، في بعضها قوة ورجولة ، وفي بعضها الآخر رقة ونعومة . وقد ساعدتهم الحضارة والترف على الاغراق في اللهو حتى كان بعض الخلفاء يؤثر اللهو على كل شيء .

ونسوق هنا طرائف من ملاهي الخلفاء ، تبين ماكانوا عليه في هذا الباب .

١ - الرياضة والمصارعة ورفع الاثقال

فممن اولع بالرياضة الامين . كان قويا يحب المصارعة . صارع اسدا مرة فأزال للاسد اصابعه عن مواضعها (١) . وكان المعتصم قوي البنية ، فساعده ذلك على رفع الاثقال ، كان يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات (٢) . وحمل مرة بابا من حديد فيه سبعمائة وخمسون رطلا (٣) .

(١) مروج الذهب (بهية) ، ج ٢ ، ٢٠٢ .

(٢) الفخري ، ص ٢٠٩ .

(٣) العقد الفريد (مصر ، ١٩٣٥) ، ج ٢ ، ٢٠٤ .

وأولع المعتضد بالمصارعة أيضا . فيقولون انه أراد أن يصارع اسدا ، فأقبل يمشي اليه ، فعاجله بضربة وثني باخرى ، ففلق هامته ، فخر صريعا . فمسح السيف في صوفه حتى نظفه ، ورجع فأغمد السيف (١) .

٢ - الصوالجة

وكانوا مولعين بالصوالجة ، وهي ضرب الكرة من ظهور الخيل . واصل هذه اللعبة فارسي . (٢) فكانوا يبنون لها ميادين خاصة في قصورهم (٣) .

كان الرشيد اول خليفة لعب بالصولجان في الميدان ، ولعب بالنشاب في البرجاس ، ولعب بالاكرة والطبّاط (٤) .

واخذ عنه ولداه حب الصوالجة . فكان المأمون ينزل الى الحلبة كل يوم (٥) . وأصبح الامين بعد بيعته بيوم فأمر ببناء ميدان حول قصر ابي جعفر للصوالجة واللعب (٦) . وأولع المعتصم بركوب الخيل واللعب بالصوالجة (٧) . ويذكرون انه لعب مرة مع اسحاق بن ابراهيم المصعبي ، ثم صار الى حجرة الحمام فدلكا جسديهما ثم ناما .

-
- (١) نوار المحاضرة ، ج ٢ (مجلة المجمع العلمي ، المجلد ١٧ ، ص ٤٥٢)
(٢) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ٢١٨
(٣) الوزراء للصايبي ، ص ١٣٨
(٤) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٥١٦
(٥) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٠٧
(٦) الطبري ، حوادث سنة ١٩٢
(٧) ابن الاثير ، ج ٦ ، ٢١٦

وكذلك اولع المنتصر بالصوالة ولعا شديدا .

٣ - الصيد

وغالى الخلفاء بالعناية بالصيد وشفقوا به . فقد استهوتهم ملاذه ومحاسنه ، ولغراهم ما استفاد به من النشاط والاريجية ، والمران ، والرياضة ، والخفوق ، والحركة ، وانبعث الشهوة ، ودفعهم اليه مافيه من الفروسية ، والتعلم على ركوب الخيل ، صعودا اد حدورا ، كرا او انكفاء ، وتعظفا او اثناء (١) .

كان ابو العباس السفاح كثير اللهج بالصيد ، لم يتركه ناشئا ومكتهلا . (٢)

وركب المنصور يوما ، في صدره مشهرة ، وعلى يده بازي حتى عبر جسر بغداد بادئا ، وانكفا فعبر الجسر الاخر راجعا . فلما عاد قال للربيع : ما قال الناس في ركوب امير المؤمنين ؟ قال : عجبوا منها . قال : انه كان لامير المؤمنين في ذلك مذهب وهو انه سيأتي من ابنائنا من يحب الصيد ، ويتبدل فيه . فأحبيت ان يكون مني مارايت . فمتى فعل مثله منا فاعسل بعدي قال الناس : قد ركب المنصور على مثل هذه الصورة . (٣) وكان المهدي يخرج الى الصيد ، وعني بتربية الكلاب التي تسبق الظليم في عدوها ، والبسها اطواقا من ذهب ، ووكل بكل

(١) البيزرة (كرد علي) ، ص ٥٣

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٧

كلب عبداً يخدمه (١) . وفي هذا مشابه لما كان يفعله يزيد
ابن معاوية فقد كان أشد الناس كلفاً بالصيد لا يزال لاهياً به ،
وكان يلبس كلاب الصيد الاساور من الذهب والجلال المنسوجة
منه ، ويهب لكل كلب عبداً يخدمه (٢) .

والمهدي هذا كان لا يكاد يغب الصيد ، وكان محدوداً فيه
لا يحرم ، حتى قال فيه بعض شعرائه :

يفدو الامام اذا غدا للصيد ميمون النقيب
فيؤوب ظافرة جوارحه واكلبه الاديبه
بمخالب وبرائن بدماء ماقتنصت خضيبه
وسهامه لوحوشه والطيير قاصدة مصيبه
وكانما عرفته فانقادت لدعوته مجيبه (٣)

وكان يخرج اذا خرج بحفاوة ، وخرج مرة ومعه ابو دلامة
يحوطه الفرسان متنكبين قسيهم ، متقلدين سيوفهم ، تتبعه
الجند ، وقد حمل طائفة من الجند المؤن على الخزائن (٤) .
وكان للرشيدي حظ من الصيد . وكان يرتاح اذا حضره
ارتياحاً شديداً حتى تحمله الاريحية على ركض فرسه ، والشد
في اثر الطريدة (٥) . وكان كلما حل في مكان خرج يتصيد (٦) .

(١) حضارة الاسلام ، ص ٩٥

(٢) الفخري ، ص ٦٧

(٣) البيزرة ، ص ٥٨

(٤) حضارة الاسلام ، ص ٩٦

(٥) البيزرة ، ص ٥٩

(٦) الاغانى ، ج ٥ ، ص ١١٦

ولم يثن العلم والادب المأمون عن الصيد . فكان يخرج اليه .
ويذكرون انه خرج ذات يوم لصيد الطباء فاصطادته عادة
حسنة فقال :

خرجنا الى صيد الطباء فصادني
هناك غزال ادعج العينين احور
وصار فؤادي اذ رماني بسهمه
وسهم غزال الانس طرف ومحجر
فيامن راى ظبيا يصيد ومن راى
اخا قنص يصاد قهرا ويقسر (١)

وكان لايفضل على الصيد شيئا ايا كان . ركب يوما بدمشق
يتصيد حتى بلغ جبل الثلج ، فاعترضته في بعض الطريق
بركة عظيمة في جوانبها اربع سروات لم ير احسن منها ولا
اعظم . فنزل وجعل ينظر الى آثار بني امية ويعجب منها
ويذكرهم (٢) .

وكان المعتصم اكثر هؤلاء الخلفاء مخالفة للصيد واخفهم
فيه ركابا ، وكان يلهج به كثيرا ، ويقطع ايام بطالته فيه .
وبنى في ارض دجيل بستانا طوله فراسخ كثيرة . فكان اذا
ضرب حلقة من الحمر يضايقها ولا يزال يحدها حتى تدخل
وراء الحائط فتصير بين البستان وبين دجلة ، فلا يكون لها

(١) الاغاني (ساسي) ج ١٠ ، ١٢٦

(٢) الاغاني (دار) ج ٤ ، ٩٧

مجال . فاذا انحصرت دخل هو وولده واقاربه وخواص
حواشيه وتفننوا في القتل . (١)

وكان اذا صاد عاد بصيد كثير . ذكر اسحق الموصلي
قال : دخلت يوما على المعتصم وقد رجع من الصيد ، وبين
يديه ظباء مذبحة وطيير ماء وغير ذلك ، وهو يشرب . (٢)

اما الواثق فقد كان يخرج الى الصيد في نواحي عكبرا (٣)
وكان يخرج الى القاطول . (٤) ويحمل معه الجلساء والمغنين
وفيهم اسحق الموصلي ، وعمرو بن بانه . (٥) ويصطاد
الاوز والدراج وطيير الماء . (٦) والسماك على شاطئ
دجلة . (٧)

ثم كان المعتضد كالمعتصم في اكثر اموره ومآربه لمباشرة
الحرب والصيد ، فلم يكن ينفك من حرب الا الى صيد ، ولا من
صيد الا الى حرب . وكان يخرج لصيد الاسود فيخيم عليها
حتى لا يبقى منها باقية . (٨)

وكان لهو المكتفي الدائم الصيد ، الا انه كان اكثر مايدمنه

-
- (١) الفخري ، ص ٦٥
(٢) الاغانى ، ج ٢ ، ٨٣
(٣) زهر الاداب ، ج ٢ ، ٢٢١
(٤) الاغانى ، ج ٥ ، ١٠٥
(٥) المصدر السابق
(٦) المصدر السابق ، ص ١٧١
(٧) القفطي (المانية) ، ص ٢٨٧
(٨) البيزرة ، ص ٦٢ - ٦٣

الصيد بالفهد والعقاب ، وهما سبعا الضواري والجوارح .
وكان يباشر ذلك بنفسه . قال صاحب كتاب البيزرة : كان
شديد الشغف بذلك ، يرتاح اليه . اخبرني بذلك ابو بكر
محمد بن يحيى الصولي ، واخبرني من رآه بظاهر انطاكية ،
منصرفه مع المعتضد عند اخذه وصيفا الخادم . (١) وكان
المكتفي اذا خرج الى الصيد أخرج معه العسكر (٢) .

وكان المتقي يخرج الى الشماسية لصيد السباع .

فأنت ترى ان هؤلاء الخلفاء شغفوا بالصيد على انواعه ،
وجعلوه لهوا من لهوهم ، وخاطروا فيه حتى جعلوا همهم
صيد الاسد والسباع والجوارح .

٤ - النرد والقمار

ويظهر ان بعض الخلفاء كانوا يلعبون ويقامرون . ذكر
ابو عبد الله محمد بن احمد بن حمدون قال : كنت قد حلفت
وعاهدت الله ان لا اعدد مالا من القمار وانه لا يقع في يدي منه
شيء الا صرفته في ثمن شمع يحترق ، او نبيذ يشرب ، او
جذر مغنية ، فجلست يوما لاعب المعتضد فقمرته بسبعين
ألف درهم (٣)

وذكر صاحب « الاغاني » ان الرشيد لعب مع ابراهيم

(١) البيزرة ، ص ٦٥

(٢) الصابي ، ص ١٢٨

(٣) الاذكياء لابن الجوزي ، ص ٢٥

الموصلي بالنرد ، في الحلقة التي كانت على الرشيد ، فقمصر
الرشيد ، فقام فنزع ثيابه وقال للرشيد : حكم النرد الوفاء به ،
وقد قمرت ووفيت لك .. فألبس ما كان علي . قال الرشيد :
ويلك انا البس ثيابك ؟ فقال اي والله ! وما زال حتى نزع
ما كان عليه فدفعه الى ابراهيم (١) .

وكان الامين يلعب بالنرد مع وزيره الفضل بن البريع
فيغلبه (٢) .

وكان الفتح بن خاقان يلعب المتوكل . كانا مرة يلعبان
فاستؤذن للقاضي احمد ابي دؤاد ، فاراد الفتح رفع النرد
فمنعه المتوكل وقال له : اجاهر الله بشيء واستره
عن عبادة ؟ (٣) .

وهناك امثلة اخرى ، نكتفي بذكر ماذكرنا .

٥ - الشطرنج

وكان الخلفاء العباسيون يلهون بالشطرنج لهوا كبيرا ، وكانوا
يعدونه في ذلك العصر من الاداب . قال الحسن بن سهل :
الاداب عشرة ، ثلاثة شهرجانية ، وثلاثة انو شروانية ، وثلاثة
عربية . اما الشهرجانية ف ضرب العود ، ولعب الصوالج ، ولعب

(١) الاغاني ، ج ٥ ، ص ٢٦ ،

(٢) الفخري ، ص ٥٥

(٣) زهر الاداب ، ج ٤ ، ص ٣١

الشطرنج. واما النوشراوانية ، فالطب والهندسة والفروسية .
واما العربية فالشعر والنسب وايام الناس (١) .

وقد كان الخلفاء العباسيون يعنون بالاداب الشرجانية عناية كبرى ،
وقد رايت بعض احتفالهم بالصوالجة ، وسترى مبلغ ولوعهم
بالفناء والضرب على العود ، اما الشطرنج فكانوا يحبونه . وكان
المأمون لا يتركه ويقول : هذا يشحد الدهن . (٢) حتى انه لما
قدم من خراسان اراد ان يتلهى فلم يجد ما يتلهى به غير
الشطرنج . (٣) ونسبوا اليه انه قال في وصف الشطرنج
شعرا . (٤)

وكان الرشيد يلعب الشطرنج اذا سافر في دجلة في
حراقتة . (٥)

وكان المتوكل يرى نداماه يلعبون الشطرنج بين يديه . (٦)
وتوصل الصولي بالشطرنج الى منادمة الراضي ، والف له
كتابا فيه .

وكذلك اولع بالشطرنج المعتضد ، وقد كانوا يشترطون في

(١) زهر الاداب ، ج ١ ، ١٩٥

(٢) أخبار الخلفاء ، ص ١٢٨

(٣) محاضرات الادباء ، ج ١ ، ٤٤٨

(٤) مجلة الزهراء ، مجلد ١ ، ص ٤٤٨

(٥) الاغانى ، ج ٩ ، ٦٤

(٦) الفهرست ، ص ١٥٥

النديم ان يكون شطرنجيا ، واذا كانت القينة شطرنجية زادت قيمتها وزادت الرغبة فيها ، نظرا لجمعها بين الانوثة والمنادمة .

٦ - تربية الحيوانات وجمعها

وكان الخلفاء يتلهون بجمع الحيوانات والنظر اليها . كان للمنصور عناية بجمع الفيلة ، (١) وكان يجمع الخيل حتى انه اجتمع له من الخيل مالم يعرف مثله في جاهلية ولا اسلام .

وكان الرشيد يلتذ بمرأى الخيل ، ويجريها امامه (٢) وكان يجمع الاسود والنمور وغيرها في الاقفاص (٣) .

وكان لزوجته زبيدة قرد مولعة به ، فمات . فساءها ذلك ونالها من الغم ما عرفه يومئذ الصغير والكبير من خاصتها ، حتى ان ابا هارون العبدي كتب اليها يعزيها فيه (٤) .

وكان الامين يشرب ويشرف على حير الوحش عنده . وقد غناه مرة ابراهيم بن المهدي وهو مخمور يشرف على الحير . فما ابتدا يفني حتى اصغت الوحش اليه ومسدت اعناقها ، ولم تزل تدنو منه حتى كادت ان تضع رؤوسها على

(١) المقد الفريد ، ج ١ ، ١٥٠ ،

(٢) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٢٧٩ ،

(٣) المقد ، ج ١ ، ١٥٠ ،

(٤) زهر الاداب ، ج ٤ ، ١٠١ ،

لذلك الذي كانوا عليه . فلما سكت نفرت وبعدت . فعجب الامين اشد العجب من ذلك (١) وهذا الخبر يدل على مبلغ تعلق الامين بالوحش ، فالشرب لا يكون الا على ما هو جميل يحب . وقد كان الامين يحب الوحش . وكذلك يدل على براعة ابراهيم في الغناء حتى انه اطرب الوحش فحنت اليه وقربت منه .

وكان المعتصم يحب الخيل ، ويلتقط احاسنها ، حتى انه اخذ فرسا اشهب من عند ابن الزيات ، وكان اعجب به (٢) .

وبنى المقتدر في دار الشجرة حيرا كبيرا ، وكان فيه من اصناف الوحش قطمان تقرب من الناس وتشمهم وتاكل من ايديهم ، وفيها اربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي ، وفيها مائة سبع ، خمسون يمنة وخمسون يسرة ، كل سبع في سد سبع ، وفي رؤوسها واعناقها السلاسل والحديد (٣) .

ويذكر السعودي ان الخلفاء كانوا يعنون ايضا بمناطقة الكباش . وانه كان لديهم كباش يناطحها بين ايديهم ، وديوك . فلما جاء المهتدي بالله ذبحها جميعا . (٤)

٧ - الشراب والغناء والمجون

ونأتي الان الى ضرب من ضروب اللهو تشارك فيه اغلب الخلفاء

(١) الاغاني ، ج ٩ ، ص ٥٣

(٢) زهر الاداب ، ج ٢ ، ص ١٨٧

(٣) تاريخ بغداد للخطيب ، ج ١ ، ص ١٠٥

(٤) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٣٦

هو الشراب وما يتبعه من غناء ، ورقص ، ومنادمة ، ومجون .
ونحن نعلم ان اهل العراق كانوا لا يرون بالشراب بأسا . (١)
لذلك انتشرت دور الخمر ، في كل مكان . (٢)

لم يؤثر عن السفاح انه آثر اللهو والخلاعة او انغمس في
المجانة ، فاذا سمع غناء طرب وصاح من وراء الستار فيعاد
الصوت . ولم ير في دار المنصور لهو قط ، ولا شيء يشبه
اللهو واللعب والعبث . (٣) وكان لا يشرب على مائدته
شراب (٤) ولم يكن يظهر لندمائه بشرب ولا غناء ، بل كان
يجلس وبينه وبين الندماء ستارة ، وبينهم وبينها عشرون
ذراعا . (٥)

واول من ظهر للندماء في الشراب من خلفاء بني العباس
المهدي . (٦) وكان قد احتجب بادىء ذي بدء عن المغنين ،
ثم قال : انما اللذة في مشاهدة السرور وفي الدنو ممن سرني ،
فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟ (٧)

ثم اطلق عنان شهواته ، فلذ وترف وتنعيم ، فأخرج قصره
ولديه زينة الدنيا وبهجة عصرهما في الظرف والغناء : ابراهيم
بن المهدي ، وعليه بنت المهدي . (٨)

(١) انظر كتاب الاشربة لابن قتيبة (كرد علي)

(٢) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ٢٠٢

(٣) الفخري ، ص ١٨٧

(٤) الطبري ، ج ٩ ، ٣٠٩

(٥) اخبار الخلفاء للسيوطي ، ص ١٠٥

(٦) المصدر السابق ، ص ١٠٥

(٧) التاج ، ص ٣٥

(٨) ضحى الاسلام ، ج ١ ، ١٠٨

وكان الهادي يتناول المسكر ، ويلعب ، ويركب حمارافارها ،
ولا يقيم للخلافة ابهة . (١) وكان يأمر للمغني بالمال الخطير
الجزيل . غناه ابراهيم الموصلني يوما فقال للقيم على الخزانة :
ادخله بيت المال فليأخذ منه ماشاء . (٢)

واولع الرشيد بالفناء ، وكان ابراهيم بن المهدي يغني اخاه
الرشيد فيستمع اليه ويطرب ، وكان ابو عيسى بن الرشيد
يقول لعمه : السكر على صوتك شهادة ياعم (٣) .

وكان اذا شرب لم يحضر شربه الا خاص جواريه (٤) .
وكان يشرب في كل جمعة مرتين ، وربما قدم ايامه واخرها ،
على انه لم يره احد قط يشرب ظاهرا . (٥) ولكنه كان
يشرب مع نداماه ومغنيه .

والرشيد هو الذي جعل للمغنين مراتب وطبقات ، فكان
ابراهيم الموصلني وابن جامع وزلزول الضارب في الطبقة الاولى .
وكان زلزول يضرب ، ويغني الموصلني وابن جامع عليه . والطبقة
الثانية : اسحاق برصوما ، وسليم بن سلام ، وعمرو الغزال .
والطبقة الثالثة : اصحاب المعازف والطنابير . وكان يطرب
للفناء ، ويصل المغنين بأموال كثيرة . (٦)

(١) اخبار الخلفاء ، ص ١٠٦

(٢) التاج ، ص ٣٥ - ٣٦

(٣) ثمار القلوب ، ص ١٢١

(٤) التاج ، ص ٣٧

(٥) المصدر السابق ، ص ١٥٣

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٠ - ٤٢

وكان الامين لاينقطع عن الشراب ، وقد وصفه وزيره
الفضل بن الربيع فقال : قد الهاه كأسه وشغله قدحه ، فهو
يجري في لهوه والايام تسرع في هلاكه . وكان يشرب بأقداح
من بلور مرصعة بالجواهر . ووجه الى جميع البلدان في طلب
المهين فضمهم واجرى لهم الارزاق ، وأمر ببناء مجالس
لمنتزهاته ومواضع خلواته ولهوه وشربه ولعبه . (١)

وكان شديد الطرب الى الغناء ، واسع العطاء اذا طرب .
وصفه اسحق الموصلي فقال : ماكان يبالي اين قعد ومع من
قعد . وكان ، لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب ، خرقها
كلها والقاهها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا ، وكان من
اعطى الخلق لذهب وفضة ، وانهبهم للأموال اذا طرب او لها .
وقد رأته امر لبعض اهل بيته في ليلة بحمل زورق ذهباً ،
وامر لي ذات ليلة بأربعين الف دينار .

وحتى في اعسر ساعات حياته ، عندما احيط به ، كان
يستمتع الى الغناء ، فبينما كانت حجارة المنجنيق تصل بساطه
كانت إحدى الجوارى تغنيه . (٢)

ويذكر الجاحظ ان المأمون كان يشرب في اول ايامه الثلاثاء
والجمعة ، ثم انه ادمن الشرب عند خروجه الى الشام فسي
سنة خمس عشرة ومائتين الى ان توفى . (٣)

(١) الطبري ، ج ١٠ ، ٢١٥

(٢) التاج ، ص ٤٢ - ٤٣

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٣

وكان في اول امره اقل ميلا للفناء من اخيه . واقام بعد
قدومه من خراسان عشرين شهرا لم يسمع حرفا من الفناء .
ثم سمعه من وراء حجاب متشبها بالرشيد ، ثم ظهر الندماء
والمغنين (١) . وتصف كتب الادب مجالس شربه ولهوه ،
وكان يحضر الجواري الحسان يسمع غناءهن ويتمتع
بجمالهن . حدث اسحق قال : دعاني المأمون يوما وعند
ابراهيم بن المهدي وفي مجلسه عشرون جارية قد اجلس
عشرا عن يمينه وعشرا عن يساره وهن يغنين .

وكان الواثق مدمنا الشرب يتابعه ، غير انه لم يكن يشرب
في ليلة الجمعة ولا يومها (٢) . وكان يحب الفناء ، بل كان
هو نفسه مغنيا ، وكان المغنون يحيطون به لايفارقونه ، وكان
يعجب باسحق الموصلي ويقول : ماغناي اسحق قط الا
ظننت انه قد زيد في ملكي ، ولا سمعته قط يغني غناء ابن
سريج الا ظننت ابن سريج قد نشر . ان اسحق لنعمة من
نعم الملوك التي لم يحظ احد بمثلها . ولو ان العمر والشباب
والنشاط مما يشتري لاشتريتهن له بشرط ملكي (٣) .

والى جانب غنائه كان حاذقا بضرب العود ، وله اصوات
عملها نحو مائة صوت (٤) .

(١) التاج ، ص ٤٣

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٣

(٣) الاغاني

(٤) اخبار الخلفاء ، ص ١٣٦

وكان أُلعتصم يشرب طول الجمعة ، لا ينقطع الا يوم
الخميس ويوم الجمعة (١) .

اما المتوكل فقد كان منهمكا في اللذات والشرايب انهماكسا
كبيرا (٢) . وكان بنان وزنام لا يفارقانه ، هذا يضرب وذاك
يزمر . وكان لا يشرب الا على سماءهما (٣) . وكان اول من
اظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل (٤) .

وكننا رأينا كيف كان يحب الورد ويشرب عليه .

وكان المتوكل يدخل السماجة في مجلسه (٥) . وهم اناس
كانوا يحاكون حركات بعض الناس ويمثلونهم في اصواتهم
ويظهرون في مظاهر مضحكة .

ولما تولى الخليفة القاهر امر بتحريم الغناء والخمر ، ولكنه
كان هو يشرب المطبوخ ولا يكاد يصحو من السكر (٦) .
وكان مولعا بالغناء والسماع ، فوضع من يشتري له كل حاذقة
في صنعة الغناء . « وفي بستانه الذي غرس فيه النارنج وحمل
اليه الفروس من أرض الهند ، وجعل فيه انواع الاطيار »
(٧) كان يشرب ويستمتع الى الغناء .

(١) التاج ، ص ١٥٣

(٢) أخبار الخلفاء ، ص ١٣٩

(٣) ثمار القلوب ، ص ١٢٢

(٤) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٦٩

(٥) الديارات ، ص ٢٦

(٦) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٠٣

(٧) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٥٢٨

وبدا الراضي خلافته بالامتناع عن الشراب ، ثم اغواه
اصحابه ، وكان قد اعطى الله عهدا الا يشرب ، فوجد الفقهاء
له رخصة ، وصار يشرب ويلهو .

وبعكسه المستكفي ، فقد كان قد ترك الشراب قبل
الخلافة ، فلما افضت اليه الخلافة دعا بالنبيذ وشربه . (١)
وكان المعتز يشرب كثيرا ، وكان يشرب في البساتين
الملاى بالنمام وشقائق النعمان ، وعلى وجه غلامه
يونس بن بغا (٢) .

(١) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢٣٠ ،

(٢) الديارات ، ص ١٠٦

سجون بغداد

نمهد : مانحسب ان احدا من المتقدمين او المحدثين ، بحث في السجون على التفصيل . فهذا مبحث بكر طريف . سنحاول ان نقدم اليك فيه صورة واضحة تبين لك سبب السجن ، وتريك انواع السجون وضروب السجنى . ثم تطوف عليهم ، فترى ماياكلون وما يلبسون ، وكيف يفرون ومتى يخرجون . فاذا فرغنا عقدنا فصلا خاصا بأدب السجون ، ثم استدركنا مافاتنا من الحوادث والاخبار المتعلقة بهذا الموضوع .

ويتساءل الانسان عند البحث فى هذا الموضوع عن الاسباب التي كان الناس يساقون بها الى السجن . أفكانوا ينهجون نهجا او يتبعون شريعة اذا خرج عنها واحد عوقب بالسجن ؟ الحق انه لم يكن شيء من هذا . فقد كان يكفي ان يقول الخليفة او الامير أو صاحب الشرطة « الحبس » حتى يودعوا من لفظت بسببه « المطبق » (١) فقد كان الحبس سلاحا فى يد الخلفاء

(١) الديارات ، دير مديان مثلا

والوزراء ، وقوة يكيدون بها للمتمردين والعاصين والاعداء ،
ويهددون مخالفهم فيما يشتهون ويحبون .

١ - الوزارة سبيل السجن

من العجب ان نرى الوزارة كانت سبيلا يوصل الى السجن
في غالب الاحيان . وندرم نجا من الوزراء ولم يسجن . وربما
قتل ولم يحبس ، وربما أصابه الامران معا . فقد سجن يعقوب
بن داود وزير المهدي (١) ، وجعفر بن يحيى وزير الرشيد ،
ويحيى بن خالد وابنه الفضل (٢) . وسجن محمد بن عبد
الملك الزيات وزير المعتصم والوائق بعد ان صودرت أمواله
ونهبت دوره وضمت الى القواد ضياعه (٣) ، وسجن ابن
الخصيب وزير المستعين وتكب . (٤) كما حبس أبو الصقر
وزير المعتمد وقتل (٥) ولم ينج محمد بن عبيد الله مسن
السجن ، فقد عزله المقندر من الوزارة وحبسه مع ابنه . (٦)
وسبب ذلك ان الخليفة كان يستمع الى اقوال المنافسين
ويصفي الى مقالة الحاسدين ، فيأمر بعزل وزيره وسجنه .
فاذا لم يسجن جاء خلفه فسجنه انتقاما منه ، وخشية ان
يشغب فيبعده عن السلطان .

(١) الفخري ، ص ٢٢١

(٢) العقد الفريد ، ج ٣ ، ٢٧٠

(٣) الطبري ، حوادث سنة ٢٢٢

(٤) العقد الفريد ، ج ٢ ، ٣٠٥

(٥) الاداب السلطانية ، ص ٣٠٠

(٦) المنتظم ، ج ٦ ، ١٢١

٢ - مناوئو الخلافة

اما مناوئو الخلافة ، والشاغبون عليها ، فكان مشواهم السجن . فقد سجن عبد الملك بن صالح ، وقد سعى به عند الرشيد بطلب الخلافة (١) . وسجن العباس بن المأمون عندما دعا الى نفسه (٢) وحبس الافشين لما شق عصا لطاعة على الخلافة ، ولم يجدوا بدا من اتهامه بالزندقة ليقتلوه . (٣)

٣ - الديون والمصادرات

وكانت الديون والمصادرات تودي بصاحبها الى السجن . وكثار من صودرت اموالهم واودعوا السجن ، ثم أتى بهم فنوقشوا الحساب ، وطلب منهم رد الاموال . حدث سليمان بن وهب قال : « كنت انا والعباس بن الخصيب ، مع خلق من العمال والكتاب معتقلين في يدي محمد بن عبد الملك في آخر وزارته للوائق ، نطالب ببقايا مصادرات . فقبض علي ، فلم أشك في انه القتل . وفتحت الابواب . . . وحملني الفراشون لثقل حديدي ، وحملت الى اسحاق بن ابراهيم ، وكان صاحب الشرطة . فاذا فيه صاحب ديوان الخراج ،

(١) الطبري ، سنة ١٨٧

(٢) البدء والتاريخ للبلخي ، ج ٦ ، ١١٤

(٣) ابن الاثير ، ج ٦ ، ١٩٠

وصاحب ديوان الضياع ، وصاحب الزمام ، وبعض الكتاب .
فطرحت في آخر المجلس . فشممني اسحاق بن ابراهيم اقبح
شتم ، وقال : يا فاعل ، وباصانع ، تعرضني لاستبطاء امير
المؤمنين ؟ اين الاموال التي جمعتها ، وحبست بسببها ؟

فاحتججت بنكبة ابن الزيات ، فقال لي صاحب ديوان
الضياع : اخذت من الناس اضعاف اضعاف مالديت ، وعادت
يدك الى كتبة ايتاخ ، فاخذت ضياع السلطان واقطعتها لنفسك
وحزتها سرقة اليك . وانت تستغلها الف الف درهم ، وتترى
بزي الوزراء ! (١)

وقد ذكر التنوخي كثيرا من احاديث هؤلاء المسجونين لذيون
ومصادرات فليرجع اليه .

٤ - الزندقة ، الشعوبية ، القرامطة ، الملاحدة ، الرفضة

وكان الزنادقة يقتلون طورا ويسجونون طورا . وربما
اتخذوا الزندقة سبيلا للقتل او السجن . وكان الزنادقة
بودعون سجنا خاصا في المطبق . ذكر ابو نواس قال : كنت
اتوهم حماد عجرد انما يرمي بالزندقة لمجونه في شعره ، حتى
حبست في حبس الزنادقة ، فاذا حماد عجرد امام من ائمتهم ،
وإذا له شعر مزاج بيتين بيتين يقرأون به في صلاتهم . (٢)

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٤٣

(٢) الاغاني ، ج ١٣ ، ٧١

وقد سجن ابو نواس متهما بالزندقة ، وكان قد عرض
بالامين (صاحب التاج) . واعتقد ان تعريضه به هو سبب
سجنه ، وانهم جعلوا الزندقة سببا . فقد قال :

وقد زادني تيبها على الناس انني
اراني اغناهم وان كنت ذا فقرا

فلو لم انل فخرا لكانت صيانتني
فمي عن جميع الناس حسبي من فخر

فلا يطمعن في ذاك مني طامع
ولا صاحب التاج المحجب بالقصر

فقال له الامين وقد اتى به « ابلغ بك الامر ان تعرض بي
في شعرك يا بن اللخناء . . . ؟ »

ثم اتخذوا عليه حجة انه زنديق قد شرب ماء المطر مع
الخمير وقال : هانذا اشرب الملائكة ، فان مع كل قطرة
ملكا ! (١)

ومن الطريف ان نتابع القصة . فقد ذكروا ان خال الفضل
بن الربيع كان يتعهد المحبوسين ويسأل عنهم . وكانت فيه
غفلة . فدخل على ابي نواس فقال : ماجرمك حتى حبست
في حبس الزنادقة ؟ ازنديق انت ؟

(١) الطبري ، سنة ١٩٨ - الملح والنوادر ، ص ١٣٥

فقال : معاذ الله !

قال : اتعبد الكباش ؟

قال : ولكنني آكله بصوفه !

قال : افتعبد الديك ؟

قال : لا والله ، بل آكله . . . ولقد ذبحت ألف ديك ، لان ديكا نقرني مرة ، فحلفت ألا أجد ديكا الا ذبحته .

قال : فلأي شيء حبست ؟

قال : لاني اشرب شراب أهل الجنة ، وانام خلف الناس .
فقال : وانا أفعل ذلك !

فخرج خال الفضل الى الفضل وقال له : ماتحسنون جوار الله ! تحبسون من لا ذنب له ؟ سألت رجلا في الحبس عن خبره فقال كذا وكذا . وعرفه بما جرى بينهما ، فضحك ودخل على الامين فأخبره الخبر ، فأمر بتخليته ! (١)

وكان الشعوبيون يسجنون لتهجمهم على العرب ، وقد سجن الرشيد أبا نواس لقصيدة قالها وهجا العرب بها . (٢)
وحبس فيما بعد ، محمد بن هارون الوراق الملحد ، ومات في السجن . وطلب ابن الراوندي الملحد ليسجن ففر . (٣)

(١) الملح والنوادر ، ص ١٣٤ - ١٣٥

(٢) حديث الأربعاء ، ص ١١٣

(٣) المنتظم ، ج ٦ ، ١٠٢

وسجن المقتدر رجالاتا من الدعاة الى القرامطة والذاهبين
مذهبهم . سجن جماعة من الرافضة ، كانوا يجتمعون في
مسجد لسب الصحابة والخروج عن الطاعة . (١)

٥ - مخالفة رأي الخليفة

وكان مخالف رأي الخليفة او الوزير معرضا للسجن . وقد
سجن الوفاء ، وقتل الوفاء في محنة خلق القرآن . وكان احمد
بن حنبل ، الذي لم يقل بخلق القرآن ، أحد من سجنوا . (٢)

٦ - ادعاء النبوة

وكان المتنبئون يسجنون ان لم يقتلوا . وقد كثر التنبؤ في
عصر بني العباس ، وكان لاصحابه مع الخلفاء نبوادر
واحدية . (٣)

٧ - المجون ، الفسق ، الشراب

وكان المستهترون والفساق ، يسجنون حتى ينالهم العفو .
ذكر ابن المعتز ان اسحق بن ابراهيم لما بلغه ما فيه أبو العبر
من الخلاعة والمجانة امر بحبسه . فكتب اليه أبو العبر رقعة

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ٢١٧

(٢) البدء والتاريخ ، ج ٦ ، ١٢١

(٣) مروج الذهب ، ج ٢ ، ٣٣١

يذكر فيها انه تائب ، ويسأله ان يخرجه من الحبس حتى يعلمه رقية العقرب . فأحضره وقال : اذا رايت العقرب فتناول النعل واضربها ضربة شديدة فانها لاتعود تتحرك .

فضحك وقال : والله انه لايفلح ابدا . (١)

وامر المهدي ابراهيم الموصللي الا يشرب ، ولا يتبذل ولا يفني . فغنى ابراهيم عند اخوانه وتبذل وشرب ، فضرب ثلاثماية سوط ، وقيده وحبسه . (٢)

ووجد العسس ابا دلامة سكران في بعض الليالي . فقبضوا عليه ، وأخذوه فخرقوا ثيابه وساجه وحبسوه . فلما أفاق قال أبياتا وأرسلها الى المنصور منها :

أمير المؤمنين فدتك نفسي علام حبستني وخرقت ساجي
امن صهباء صافية المزاج كأن شعاعها ضوء السراج
وقد طبخت بنار الله حتى لقد صارت من النطف النضاج
اقاد الى السجون بغير جرم كاني بعض عمال الرخاج (٣)

٨ - العيارون ، اللصوص ، المجرمون

وكان العيارون واللصوص وقطاع الطريق يودعون السجن . (٤) وقد سجن المأمون نفرا منهم كبيرا ، وقتل آخرين . (٥) ذكر ابن المعتز ان اسحق بن خلف ، وكان

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (اقبال) ، ص ١٦٢

(٢) الاغانى ، ج ٥ ، ص ٥

(٣) ثمار القلوب ، ص ٢

(٤) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٦٥

(٥) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٧٨

احد الشطار الذين يحملون السكاكين ، قتل غلاما فحبس
بذلك فما فارق الحبس حتى مات . (١) وهذا مايسمى
بالسجن المؤبد في ايماننا . وذكر ابن الجوزي ان المعتمد حبس
ثلاثة من الجند لانهم سرقوا (٢) . وانه وجدت امرأة قد
سرت صبا في خلافة الطيع فشوته وهو حي ، واكلت
بعضه ، واقرت بذلك . وذكرت ان شدة الجوع حملتها على
ذلك . فحبست مدة ثم ضربت عنقها . (٣)

وكان الاطباء الذين يفلطون فيودون بحياة الناس يحبسون .
فقد حبس الطبيب النصراني خصيب لانه سقى محمد بن ابي
العباس السفاح شربة دواء فمرض منها ومات ، وبقي في
حبسه حتى مات . (٤)

٩ - الشعر ، الضحك ، الفناء

وقد يسجن الانسان لاسباب حقيرة لاشأن لها . وتحدثنا
كتب الادب ان ابا العتاهية سجن مرة لانه قال :

الا ان ظيما للخليفة صادني

ومالي عن ظبي الخليفة من صبر (٥)

(١) طبقات ابن العنز ، ص ١٢٨

(٢) المنتظم ، ج ٥ ، ص ١٢٤

(٣) المنتظم ، ج ٦ ، ص ٣١٧

(٤) عيون الانبياء ، ص ١٤٨

(٥) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٧٦

وسجن مرة ثانية لان الرشيد امره ان يتفزل وهو معه
في الرقة فأبى . (١) وكان معه ابراهيم الموصللي ، فأمره ان
يفني ، وقد مات الهادي ، فأبى الموصللي أيضا . فحبسه
وقال : لا يخرجان حتى يفني هذا ويشعر ذلك . (٢)

ويذكر الشابستي صاحب كتاب الديارات خبرا يدعو الى
العجب والاعجاب معا قال : خرج اسحاق بن ابراهيم من
عند المأمون ، حتى اذا صار الى الدهليز الثاني في القصر
وقف ، ووقف القواد والناس لوقوفه . ثم قال : ابن خليفة
علي بن صالح ؟

وكان على ذلك الوقت صاحب امر الدار والمرسوم بالحجة .
فأتى خليفته فضربه مائة مقرعة . ثم قال : الحبس . ثم
قال : هاتوا خليفة صاحب البريد ، فأتى به ، فضربه مائة
مقرعة . ثم قال : الحبس . ثم دعا بعلي بن صالح ، وبصاحب
البريد ، وقال لهما : تقلدان خلافتكما في دار الخلافة من
يضيع الامور ويهملها . . كنتما بهذا الادب احق من هذين !
فقالا : وما كان من امرهما الذي أنكرته ايها الامير ؟ قال :
صاحب بريد يقعد في دار الخلافة فيضحك ويقهقه ، وصاحب
الدار جالس لا ينكر . . . ! » (٣)

وفي جميع هذه الاسباب ذكرت كتب الادب اخبارا اخرى ،

(١) و (٢) الاغاني ، ج ٥ ، ٤ - ٥

(٣) الديارات (دبر مديان)

أخذنا منها مايقوم به الدليل على مذهبنا اليه ، ولم نعد الى التطويل .



انواع السجون

نستدل مما اطلعنا عليه من النصوص انه كان في بغداد انواع متنوعة من السجون . فهناك المطبق وهو حبس مظلم كبير ، كان المنصور قد بناه بين طريق البصرة وطريق باب الكوفة . وباسمه سمي الشارع الذي يقع هذا السجن فيه . وكان متين البناء قوي الاساس . وبقي أهم سجون بغداد حتى عهد المتوكل . « (١)

وكان فيها سجن آخر عند باب الشام ، اذا ذكروه قالوا : السجن الذي عند باب الشام ، وكان يهاجم دائما ، وكان عليه عثمان بن نهيك ، وقتل في فتنة الراوندية . (٢)

فلما كان زمن المعتصم امر ان يبني حبس في بستان موسى كان المقيم به مسرور الخادم مولى الرشيد . يقول التنوخي : « وكان هذا البناء يرى من دجلة اذا ركبها المرء . وكان كالبر العظيمة ، قد حفرت الى الماء أو قريب منه ، وفيها بناء على هيئة المنارة مجوف من باطنه ، وله من داخله مدرج ، وقد

(١) بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ص ٣٤

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ج ٣ ، ١٨٦

جعل في مواضع من التدرّيج مستراحات ، وفي كل مستراح شبيهه بالبيت ، يجلس فيه رجل واحد ، كأنه على مقداره ، يكون فيه مكبوبا على وجهه ، وليس يمكنه ان يجلس ولا يمد رجله . (١)

ثم بنوا سجنا آخر سموه السجن الجديد . وكان موضعه اقطاعا لعبد الله بن مالك . (٢) وبقي حتى جاء معز الدولة فهدم سورته سنة ٣٥٠ للهجرة ونقل آجره الى داره فبنى به (٣) ، وفي سنة ٣٥٥ هـ كتب الى طاهر بن موسى ان يبني موضع الحبس الجديد مارستانا . (٤)

ولا نستطيع وصف ماكان في هذه السجون على التفصيل ، وانما نعلم انها كانت ذات اقسام . فحبس للزنادقة ، وحبس للعوام ، وحبس للنساء .

وكان في المطبق الغرف الواسعات والضيقة . وكان فيه الآبار يسجن فيها . حدث يعقوب بن داود وزير المهدي قال : حبسني المهدي وذلك في المطبق . فدليت بحبل في بئر مظلمة . لاأرى فيها الضوء . (٥) قد بنيت عليها قبة ، فكنت فيها خمس عشرة سنة . (٦)

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ٢٧٦

(٢) تاريخ بغداد للخطيب ، ج ١ ، ٨٧

(٣) المنتظم ، ج ٧ ، ٢

(٤) المصدر السابق ، ج ٨ ، ٢٢

(٥) الفخري ، ص ٢٢١

(٦) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤١

وربما سجنوا في أماكن ومحال أخرى . فقد سجن سليمان بن وهب في كنيف قال : فأخذني اسحق (بن ابراهيم ، صاحب الشرطة) وحبسني في كنيف ، واغلق علي خمسة أبواب . فكنت لأعرف الليل من النهار . (١) وسجن المحسن بن أبي الحسن بن الفرات في كنيف داخل الحجرة ، ودلوا في بسر رأسه بعد أن قيد . والبس جبة صوف غمست بالنفط . (٢)

وربما سجنوا في الحجر الضيقة المظلمة . حدث أبو الحسن بن أبي الطاهر قال : قبض محمد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب في وزارته للقاهر بالله على أبي وعلي معا ، فحبسنا في حجرة من دار ضيقة ، واجلسنا على التراب . (٣)

وكان الحبس الذي سجن فيه المهدي ابراهيم الموصلية مكانا شبيها بالقبر مملوءا بالافاعي والبق . (٤) ولما سير المنصور جماعة من ابناء علي الى الكوفة حبسوا في سرداب تحت الارض ، لا يفرقون فيه بين ضياء النهار او سواد الليل . (٥)

وربما سجنوا في دار منفردة ، كما فعلوا بأبي العتاهية لما

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ٢٤٤

(٢) الصابي ، ص ٢٤٣

(٣) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ٥٢

(٤) الاغانى ، ج ٥ ، ص ٥

(٥) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٠٠

طلب اليه الرشيد ان يتفضل فأبى ، ومنعوا دخول من يريد اليه .

ويذكر ابن الجوزي ان القاهر بنى المطامير ليحبس الجند فيها : (١)



واناس آخرون كانوا لايسجنون في هذه المحال . فقد كانوا يحبسون من يخافون عليه او كان له شأن عند الوزراء كما سجن عبد الملك بن صالح بعهد الفضل بن الربيع لما غضب الرشيد عليه . (٢) وكما سجن ابراهيم بن المهدي بعد القبض عليه وقبل العفو عنه عند احمد بن ابي خالد . (٣) وربما اودعوا عند من يثق الخليفة به ، كما فعل الرشيد عندما سجن موسى بن جعفر بدار السندي بن تاهك . (٤)

وكانوا يتخذون قصور الخلفاء سجونا في بعض الاحايين . فقد حبس المستعين بن المعتصم ، المعتز والمؤيد ابني المتوكل في حجرة من حجرات الجوسق الكبير . (٥) ويقول لسترانج ان الخلفاء « اتخذوا دار الشجرة التي شيدها المقتدر حبسا رسميا ، وضعوا فيه اقرب اقربائهم احتياطا من اعمالهم .

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ٢٦٤

(٢) الطبري ، سنة ١٨٧

(٣) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ١٨٥

(٤) الفخري ، ص ٢٢٣

(٥) الطبري ، سنة ٢٤٨

وجعلوا في خدمتهم عددا من الفلمان والخدم ، وجهزوه تجهيزا تاما بوسائل الرفاهية والنعيم ، ومنعواهم من تخطي اسواره . « (١)

ويذكر ابن الجوزي أن القاهر حبس في دار السلطان مدة احدى عشرة سنة من (٣٢١ - ٣٣٣) ، ثم اخرج الى دار ابن طاهر ، فكان يحبس تارة ويخلى تارة . (٢)

وفي القرن الرابع اخذوا يسجنون عند القهرمانات . فقد سجن ابن الفرات عند زيدان القهرامانة . (٣) وسلم اليها ايضا الامير الحسين بن حمدان ، والوزير علي بن عيسى . (٤)



في السجن :

لانعلم الكثير من احوال السجناء داخل السجن في بدء العصر العباسي . على اننا نورد لك ماكتبه ابو يوسف للرشيد عن المساجين ، لنصور لك ماطلب ان يكونوا عليه . فقد امر ابو يوسف ان يؤمر بالتقدير لهم مايقوتهم في طعامهم وادمهم ، وان يصير ذلك دراهم تجري عليهم ، وتدفع في كل شهر اليهم : « فانك ان اجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام

(١) بغداد في عهد الخلافة ، ص ٢٢٠

(٢) المنتظم ، ج ٦ ، ٢٦٥

(٣) الصابي ، ص ١٠٥

(٤) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ٢٤٣

والجلاوزة . وول ذلك رجلا من اهل الخير والصلاح يثبت
اسماء من فى السجن ممن تجرى عليهم الصدقة ، وتكون
الاسماء عنده ، ويدفع ذلك اليهم شهرا بشهر . يقعد ويدعو
باسم رجل رجل ، ويكون الاجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل
واحد ، وليس كل من فى السجن يحتاج ان يجرى عليه « ثم
طلب ان تكون كسوتهم فى الشتاء قميصا وكساء وفى الصيف
قميصا وازارا . وان يجرى على النساء مثل ذلك . وكسوتهن
فى الشتاء قميص ومقنعة وكساء ، وفى الصيف قميص وازار
ومقنعة .

ويمعن ابو يوسف فى تصوير هؤلاء العامة من السجناء
فيقول : واغتهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم
الناس ، فان هذا عظيم ان يكون قوم من المسلمين قد اخطأوا
واذنبوا وقضى الله عليهم ما هم فيه فحبسوا ، يخرجون فى
السلاسل يتصدقون . وما اظن اهل الشرك يفعلون هذا
بأسارى المسلمين الذين فى ايديهم فكيف ينبغي ان يفعل هذا
بأهل الاسلام ؟ وانما صاروا الى الخروج فى السلاسل يتصدقون
لما هم فيه من جهد الجوع .

ولقد بلغني واخبرني الثقات انه ربما مات منهم الميت
الغريب فيمكث فى السجن اليوم واليومين ، حتى يستأمر
الوالي فى دفنه ، وحتى يجمع اهل السجن من عندهم

ما يتصدقون ، ويكثرون من يحمله الى المقابر فيدفن بلا غسل
ولا كفن ولا صلاة » . (١)

كان المسجون اذا دخل السجن كتبت قصته في سجل
خاص . ومن المؤكد ان هذا السجل كان يحتوي المدة التي
ينبغي ان يقضيها : ثم كانوا ينزعون ثيابه فيلبسونه غيرها ،
ثم يقيد ، ويقدم له طعام خاص .

حدث ابن وهب قال : اخذني اسحق (بن ابراهيم) فقيديني
بقيد ثقيل ، والبسني جبة صوف ، فأقمت كذلك نحو عشرين
يوما لا يفتح علي الباب الا مرة واحدة في كل يوم وليلة ، ويدفع
لي فيها خبز شعير وماء حار » . (٢)

وحدث سليمان بن وهب قال : « كنت في يدي محمد
بن عبد الملك يطالبني وانا منكوب ، وكان يحضرني كل يوم
وانا في قيودي وعلي جبة صوف » . (٣)

وذكر يعقوب بن داود قال : « حبسني المهدي . . . في
بئر . . . وكان يدلي الي في كل يوم رغيف وكوز ماء » . (٤)
وقيد جعفر بن يحيى في حبسه بقيد حمار قبل ان يقتل
ثم ضربت عنقه . (٥)

(١) الخراج ، ص ٨٨

(٢) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ٤٣

(٣) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ٩٥

(٤) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ١٤١

(٥) الطبري ، سنة ١٨٧

وسأل الرشيد جعفر بن يحيى يوما ما فعل يحيى بن عبد
الله ؟ قال : بحاله يا امير المؤمنين : فى الحبس الضيق
والاكبال . (١)

وقيد ايتاخ فى سجنه وصير فى عنقه ثمانون رطلا وقيد
ثقيلا (٢) وكانت وظيفته رغيفا وكوزا من ماء .

ولما حبس اسحق بن ابراهيم عمر بن فرج البسه جبة
صوف وقيده بالاكبال . (٣)

وحبس بختشيوخ المتطبب فى المطبق فضرب مائة وخمسين
مقرعة وانقل بالحديد . (٤)

وكانت جبة الصوف تدهن احايين كثيرة بالنفط او بماء
الاكارع . (٥) كما فعل بجبة ابن الفرات وغيره . (٦)
اما القيد فربما بقيت آثاره بعد فكه ، وهذا ما حدث لأبي
العباس احمد بن الفرات ، فقد علق بحبال فى يديه بقيت آثارها
فيها مدة حياته . (٧) وربما أهمل المسجونون فلم يكسوا
ولم يطعموا كما فعل الرشيد بالبرامكة . (٨)

(١) الطبري ، سنة ١٨٧

(٢) الطبري ، سنة ٢٣٥

(٣) الطبري ، سنة ٢٣٣

(٤) الطبري ، سنة ٢٤٥

(٥) الصابي ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩

(٦) الصابي ، ص ١٠٤

(٧) الصابي ، ص ٨ و ٩

(٨) طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص ١٢١

من هذا كله ترى ان لباس السجناء كان جبة من صوف ،
وان طعامهم على الاغلب رغيف ، وشرابهم كوز ماء ، وقيودهم
السلاسل والاكبال .

وقد يمنع المسجونون من مقابلة احد جاء لزيارتهم ، وقد
يقابلونه بالرشي . حدث محمد بن صالح العلوي قال : « جاءني
السجان يوما وقال ان بالباب امرأتين تزعمان انهما من اهلك ،
وقد حظر علي ان يدخل عليك احد . الا انهما اعطتاني دملج
ذهب وجعلتاه لي ان اوصلتهما اليك ، وقد اذنت لهما ، وهما
في الدهليز ، فاخرج اليهما . » (١)

ويقول ابن المعتز « ان البرامكة كان يزورهم في محنتهم من
كان يألفهم ايام نعمتهم حتى ان الرشيد كان يقول لسعيد بن
وهب « آنس القوم بحديثك ، واكثر من زيارتهم . » (٢)



وهنا قد نتساءل : اكان السجناء يتعلمون في السجن صناعة
ما او علما ؟ يذهب آدم متز (٣) الى ان المسجونين كانوا
يشتغلون بنسج التكب ، مستندا الى بيت من الشعر قاله ابن
المعتز ، لم نجده في ديوانه ، وهو :

(١) الاغاني ، ج ٩ ، ١٢١ (ترجمة محمد بن صالح)

(٢) طبقات ابن المعتز ، ص ١٢١ - ١٢٢

(٣) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ١٦٥

تعلمت في السجن نسج التكك

وكنت امرءا قبل حبسي ملك

على اننا لانستطيع الجزم بذلك . فابن المعتز سجن في مكان خاص منفرد ، ولم تكن مدة سجنه طويلة حتى يتعلم . على انه اذا نفينا ذلك عن ابن المعتز فقد يكون للسجناء ، في السجون العامة الاخرى .

ويحدثنا ابراهيم الموصللي انه حبس ايام المهدي وضرب قال : فحدقت الكتابة والقراءة في الحبس « (١) وليس في هذا مايدل على التعميم .



وما كادت المائة الثانية من الهجرة تمضي ، حتى بدأت السجون تنال عناية من الخلفاء ، ولا سيما المعتضد ، فقد اوقف لها الاموال الكبار لنفقات المحبوسين وثمان اقواتهم ومائهم وسائر مؤنهم . وقد جعل في ميزانيته الف وخمسمائة دينار في الشهر لذلك . (٢) ويحدثنا القفطي انه عين لمن في السجون اطباء افردوا لذلك ، فكانوا يدخلون اليهم ويحملون الادوية والاشربة ، ويطوفون على سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى . (٣) كما جعل للمحبسين ديوانا خاصا تكتب فيه قصصهم في دفاتر خاصة يرجعون اليها دائما . (٤)

(١) الاغاني ، ج ٥ ، ص ٤٤

(٢) الصابي ، ص ٢١

(٣) القفطي ، ص ٢٢١

(٤) الطبري ، سنة ٢٤٩

التعذيب والنبع :

وكانوا يلجأون في بعض الأحيان الى تعذيب السجين تعديبا مؤلما . وقد يخص بالعذاب الوزراء والعمال . وسنعرض عليك الوانا مختلفات من التضييق والتعذيب ، فقد كان سليمان ابن وهب في اول حبسه بالبئر « يأنس بالخنافس وبنات وردان ويتمنى الموت لشدة ما هو فيه . » (١)

وحبس محمد بن القاسم . . . بن علي بن ابي طالب في الحبس الذي شيّد في بستان موسى . « فلما ادخل اليه اكب على وجهه في اسفل بيت منه ، فلما استقر به اصابه من الجهد لضيقه وظلمته ، ومن البرد لندى الموضع ورطوبته ، ما كاد يتلفه . » (٢)

اما الضرب والتعذيب فكثير : فقد ضرب بختيشوع المتطبب مائة وخمسون مقرة . (٣) وضرب يحيى بن خالد والفضل بن يحيى . (٤) وسوهر محمد بن عبد الملك ومنع من النوم ، وكان ينخس بمسلة « تؤلمه وتدمي جسده » (٥) . ولما سجن المعتز بعد خلعه دفع الى من يعذبه ومنع من الطعام والشراب ثلاثة ايام ، فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه منها ، ثم

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٤٣

(٢) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١١٩

(٣) الطبري ، سنة ٢٤٥

(٤) المحاسن والسوىء للبيهقي

(٥) الطبري ، سنة ٢٣٣

جصصوا سردابا بالجص السخين وادخلوه فيه واطبقوا عليه
فأصبح ميتا . (١)

ومن باب التعذيب ذبح المسجونين . اورد التنوخي قصة
نوردها هنا قال : حدث القاضي ابو عمر قال : لما جرى من
امر عبد الله بن المعتز ماجرى حبست وما في لحيتي شعرة
بيضاء ، وحبس معي ابو المثنى القاضي ، ومحمد بن داود بن
الجراح في دار واحدة ، وكنت اذا جن الليل حدثت ابا المثنى
تارة ، ومحمد بن داود تارة ، وحدثاني من وراء الأبواب ،
ويوصي كل واحدنا الى صاحبه ، ونتوقع القتل ساعة بساعة .
فلما كان ذات ليلة ، وقد اغلقت الابواب ونام الموكلون ونحن
نتحدث من بيوتنا اذ احسنا بصوت الاقفال تفتح . فارتعنا ،
ورجع كل منا الى صدر بيته . فما شعرت الا وقد فتح
البواب على محمد بن داود ، واخرج ، واضجع على المذبح .
فقال : يا قوم ذبحا كما تذبح الشاة ؟ اين المصادرات ؟ اين
انتم من اموالي افتدي بها نفسي ؟ فما التفتوا الى كلامه ،
وذبحوه وانا اراه من شق الباب ، وقد اضاء السجن من كثرة
الشموع ، وصار كأنه نهار . واحتزوا رأسه فأخرجوه معهم ،
وجردوا جثته ، وطرحت في بئر الدار ، وغلقت الابواب .
قال : فأيقنت بالقتل ، وأقبلت على الصلاة والدعاء والبكاء ،
فما مضت الا ساعة واحدة حتى احسست بالاقفال تفتح ،

(١) الطبري ، سنة ٢٥٥

فعاودني الجزع ، واذا هم جاؤا الى بيت ابي المثنى ففتحوه
واخرجوه وقالوا له : يقول لك امير المؤمنين ، ياعدو الله ،
يافاسق ، بم استحللت نكث بيعتي وخلع طاعتي ؟ فقال : لاني
علمت انه لا يصلح للامامة ! فقالوا : ان امير المؤمنين قد امرنا
باستتابتك من هذا الكفر ، فان تبت رددناك الى محبسك ، والا
قتلناك . فقال اعوذ بالله من الكفر ، ما اتيت ما يوجب الكفر .
فلما ايسوا منه مضى بعضهم وعاد ، فاضجموه وذبحوه وانا
اراه ، وحملوا راسه وطرحوا جثته في البئر . فذهب على
امري ، واقبلت على الدعاء والبكاء والتضرع الى الله . فلما
كان وجه السحر سمعت صوت الاقفال ، فقلت : لم يبق
غيري ، وانا مقتول . فاستسلمت ، وفتحوا الابواب فأقاموني
الى الصحن ، وقالوا : يقول لك امير المؤمنين : يافاعل وياصانع
ما حملك على خلع بيعتي ؟ قلت : الخطأ وشقوة الجد ، وانا
تائب الى الله عز وجل من هذا الذنب . فجاءوا الى بخفي
وطيلساني وعمامتي ، فلبست ذلك واخرجت ، فجيء بي الى
الدار التي كانت برسم ابن الفرات في دار الخليفة . فلما رأني
اقبل يخاطبني بعظم جنائتي وخطائي ، وانا اقر بذلك ، واستقبل
واتنصل ، فقال : وهب لي امير المؤمنين دمك ، وابتعت منه
جرمك بمائة الف دينار ، الزمتك اياها . « (١)

ولم يكن التعذيب على ضروره مقتصرًا على خواص

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٠٨

المسجونين ، بل كان يصيب من كان في السجون العامة . فقد
رؤي في ايام المقتدر رجل في المطبق مغلولا ، على ظهره لبنة
حديد فيها ستون رطلا .



على ان هناك صلة بين التعذيب عند العباسيين والتعذيب
عند اهل اوروبة في القرون الوسطى ، وان كان التعذيب في
اوروبة يفوق تعذيب العباسيين شدة وفضاظة . فقد بلغوا
فيه مبلغا من القسوة لا يجاريهم فيه احد . وقد ذهبوا فسي
الظلم والارهاق مذاهب شتى ، وتنافسوا في ابتكار اشد
وسائل الارهاب في السجن فظاعة . من ذلك ان بعض السجون
المظلمة التي كان يزج فيها السجناء كانت اشبه بمغاور تحت
الارض ، يوصل اليها بسلايم ، لا ينفذ اليها النور . وكانت
السلايم مؤلفة من عدة درجات ، يختلف بعضها عن بعض
في حجمها وارتفاعها . والغرض من جعلها كذلك تضليل النازل
حتى تزل قدمه فيهوي الى قاع السجن الرهيب .

وكان في نورمبرغ سجن يتناقل الناس اشد الاخبار هولا
عما كان المسجونون يسامون فيه من البلاء ، وكان يعرف
بالسجن الاحمر . كانوا يقلعون فيه اظافير السجناء ، ويفقأون
عيونهم ، ويضغطون على عظامهم بالات حديدية فتسحق
وتهرس ، او يدفعونهم ليناموا في اسرة ذات مسامير محماة
تنخزم نخزا مؤلما فتسيل دماؤهم . وكان في السجن نفسه

كساء حديدي يدخل فيه المسجون فيطبق عليه ، وكان له من داخله مسامير حادة تنفذ في الجسم فيقاسي الرجل انواعا من الآلام حتى يموت .

وكان في مدينة لاهاي سجن يسمى « جيفانجن بورث » كان المسجونون فيه يصابون بالجنون قبل ان يموتوا لشدة ماكانوا يعانون من العذاب ، كالكي بالحديد وقطع الاعناق بحز الرؤوس حزا بطيئا .

وفي مدينة هاليفكس كانوا يأتون بالمسجون وهو موثق اليدين والقدمين فتوضع عنقه تحت آلة قاطعة مدلاة مربوطة الى السقف بجبل اذا انقطع سقطت الآلة الحادة على عنق الرجل فيموت . (١)

وفي سجن قمة سان ميشيل في فرنسة كان السجناء يدفعون الى كهوف في بطن الارض فيها الافاعي وضروب الحشرات ، وقد ملئت بالماء الراكد القذر فيموت المسجون موتا بطيئا ، وربما ضرب او عذب حتى يموت . (٢)

اللهو:

على اننا نرى من تمام البحث ، وقد اوردنا طرفا من

(١) انظر مقالة عن السجون في العصور الوسطى في مجلة الهلال ، ج ٦

للسنة ٢٩ ، ص ١٤٦٨ - ١٤٧٢

(٢) انظر كتاب (فونك برنتانو : سجون الماضي) وخاصة وصف

سجن شاتله .

الوان التعذيب ان نسوق طرفا من اللهو الذي كان يتمتع به
بعض المسجونين في بعض السجون . حدث ابو علي بن
مقلة قال :

« من ظريف ما اتفق لي في نكبتي التي ادتني من الوزارة
اني اصبحت وانا محبوس مقيد في حجرة من دار ياقوت امير
فارس . وقد لحقني من اليباس من الفرج وضيق الصدر
ما اقنطني وكاد يغلب على عقلي . وكنت انا وفلان محبوسين
مقيدين في بيت واحد ، الا انا على سبيل ترفيه واكرام .
فدخل علينا كاتب لياقوت كان كثيرا ما يجيئنا برسالة ،
فقال : الامير يقرأ عليكم السلام ، ويتعرف اخباركما ويعرض
عليكما قضاء اي حاجة لكما . فقلت : تقرأ على الامير السلام
وتقول له ضاق والله صدري واشتهيت ان اشرب على غناء
طيب (قال) والمحبوس معي يخاصمني ويقول : يا هذا ، والله
ما في قلوبنا فضل لهذا . ثم مضى وعاد يقول : الامير يقول
حبا وكرامة ، اي وقت شئت .

قلت : الساعة .

فلم تمض ساعة حتى جاؤا بالطعام
والمشام والفاكهة والنبيد . وصفف المجلس .
فجلست ، والمحبوس معي ، مقيدا ، وقلت : تعال حتى نشرب
ونتفائل بأول صوت يعني به لنا في هذه الساعة . وجاءت

المغنية وغنتنا غناء طيبا ، فقطعنا يومنا بين لهو وشراب
وغناء . « (١)

وحدث احمد بن المدبر انه « لما امر محمد بن عبد الملك بحبسي
ادخلت محبسا فيه احمد بن اسرائيل وسليمان بن وهب
فجعلت في بيت ثالث . وكنا نتحدث ونأكل جميعا ، وربما
ادخل الينا النبيذ فنشرب ونلهو . « (٢)

مدة السجن :

لم يكن للسجن مدة خاصة ، ولم يكن لكل جرم عقوبة ذات
اجل معروف . فقد حبس اسحق بن خلف القاتل حتى مات
(٣) . وهذا ما يشبه السجن طوال الحياة في ايامنا . وسجن
يعقوب بن داوود خمسة عشر عاما . (٤) وحبس رجل
سرق كساء ثمنه درهمان سنتين . (٥) وسجن ابو نواس
ثلاثة اشهر . (٦) و ابو دلالة ليلة واحدة . (٧) وحبس
الرشيد زلزلا المغني لوجد عليه عشر سنين . (٨) في حين
سجن المتقي في جزيرة بمقابلة جزيرة السندية خمسا وعشرين
سنة . (٩) وهذا يشبه السجن مع النفي في هذه الايام .

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤٨

(٢) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤٩

(٣) طبقات ابن المعتز ، ص ١٢٨

(٤) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٢٨

(٥) تاريخ طيفور ، ص ٢٥

(٦) الملح والنوادر ، ص ١٣٤

(٧) ثمار القلوب ، ص ٢٠

(٨) الاغاني ، ج ٥ ، ٢٢

(٩) المنتظم ، ج ٦ ، ٢٦٥

فأنت ترى ان ليس للسجن اجل محدود ، وانما كان
الخروج منه محصورا في سبل خمسة سنذكرها فيما يلي :

الخروج من السجن :

اما السبل التي يخرج بها المسجونون فهي :

الفرار ، كسر السجن ، موت الخليفة ، العفو ، حيلة
يحتال بها .

اما الفرار فحوادثه كثيرة ، نسوق اليك مثلا : حدث محمد
بن القاسم ، وكان المتوكل قد قبض عليه وسجنه في سجن
منفرد قال :

كنت ادبر امري في التخلص منذ حبست . وكان في البيت
الذي حبست فيه خلاء الى الغرفة التي فوقه وخلاء في الغرفة
الى سطحها ، وكنت قد ادخلت معي منذ حبست لبدا فكان
وطائي وفراشي . وكنت ارى في (برغش) ، وهي قرية من قرى
خراسان ، جبلا تعمل فيها من لبود كما يفعل بالسيور ، فتجيء
احكم شيء . فسولت نفسي ان اعلم من اللبد الذي تحتي
جبلا . وكان على باب البيت قوم وكلوا بي يحفظونني لا يدخل
علي منهم احد ، وانما يكلمونني من خلف الباب ويناولونني
من تحته ما اتقوته ، فقلت لهم : ان اظفاري قد طالت جدا وقد
احتجت الى مقراض . فجاءني رجل بمقراض . وقلت لهم :
ان في هذا البيت فيرانا يؤذونني اذا قربوا مني ، فاقطعوا لي

جريدة من النخل تكون عندي اطردهم بها . فقطعوا لي جريدة من بعض نخل البستان ، ورموا بها الي . فأخذت أضرب بها في البيت وأسمعهم صوتها اياما . ثم قشرت الخوص عنها ، وقطعتها على مقدار ما علمت انها تعترض في ذلك الخلاء اذا رميت بها . فضمت كل ماقطعه منها بعضه الي بعض ، وقطعت اللبد ، وضفرت منه جبلا على ماكنت اري يعمل بفرش ، ثم شددت ماقطعه من الجريدة في رأس الجبل ، ثم رميت به في الكوة وعالجته مرارا حتى اعترض فيها . ثم اعتمدت عليها وتسقلت الي الغرفة ، ومن الغرفة الي سطحها ، وفعلت ذلك اياما ، وشددت القيد مع ساقي . فلما كانت ليلة العيد ، وقد شغل الناس وانصرف من كان على الباب ، صعدت بين المغرب والعشاء الي الغرفة ، ومن الغرفة الي سطحها ، ثم تدليت بالجبل الي بستان مجاور وفررت ... » (١)

كسر السجن :

وكان يحدث كثيرا ان يكسر السجناء او العامة السجن فيخرج من في السجن وكثيرا ماقرأ في الطبري : « وفي هذه السنة كسر العامة السجن . »

فمن ذلك أنه لما خرج الراوئدية على

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٢٠ ،

أبي جعفر المنصور ، وكانوا قوما يقولون بتناسخ
الارواح ، وان ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور (١)
أخذ ابو جعفر رؤساءهم فحبسهم . فأقبلوا يطوفون حول
قصر الخلافة وقد غضبوا . واعدوا نعشا وحملوا السرير ،
وليس في النعش احد ، ثم مروا في المدينة حتى صاروا على
باب السجن ، فرموا بالنعش ، وشدوا على الحراس ، وكسروا
باب السجن فدخلوا واخرجوا اصحابهم . (٢)

ولما شغب الجند على الامين نقب اهل السجن سجونهم
وأخرجوا منها فلم يجازهم احد . (٣) وحاول اهل السجن
ان يشغبوا على المأمون ، وان ينقبوا السجن ، فسدوا الباب
من داخل ولم يدعوا احدا يدخل عليهم ، وأخذوا في نقب
السجن . فلما كان الليل وعلا شغبهم وصوتهم ، ذهب المأمون
فدعا بنفر من الشطار واصحاب الشغب في السجن فضربت
اعناقهم ، وصلبوا على الجسر . (٤) وهكذا اخفقت هذه
الثورة في السجن .

وفي زمن المستعين سنة ٢٤٩ هـ اجتمع العامة في بغداد
بالصراخ والنداء والنفير ، وانضمت اليها الشاكرية ، ففتحوا
سجن نصر بن مالك واخرجوا من كان فيه . وانتهب ديوان

(١) الفخري ، ص ١٨٨

(٢) الطبري ، سنة ١٤١

(٣) الطبري ، سنة ١٩٦

(٤) تاريخ طيفور ، ص ١٧٨

قصص المحبيين ، وقطعت الدفاتر والقيت في الماء . (١)

وفي زمن المهدي (سنة ٢٥٥) اجتمع جماعة من الجند والساكرية ومعهم جماعة من العامة ، حتى صاروا الى سجن باب الشام ، فكسروا بابه في الليلة الثالثة عشرة من رمضان واطلقوا اكثر من كان فيه . ولم يبق من اصحاب الجرائم الا الضعيف والمريض والمثقل . (٢)

وفي زمن المعتمد (سنة ٢٧٨) نقب المطبق من داخله وفر بعض المسجونين . (٣)

وقبيل وفاة الموفق (سنة ٢٧٨) قامت العامة فانتهبت دار الوزير اسماعيل بن بلبل ، وفتحت الجسور وابواب السجن ، ولم يبق احد في المطبق ولا الجديد الا اخرج . (٤)

وفي سنة ٣٠٧ شغبت العامة فكسرت الحبوس في مدينة المنصور فأفلت من كان فيها . (٥)

وفي زمن المقتدر (سنة ٣٠٨) غلت الاسعار ببغداد وشغبت العامة ووقع النهب ، وركب الجند فيها ، وشتمهم العامة ، واحرقت الحبس وفتحت السجن . (٦)

(١) الطبري ، سنة ٢٤٩

(٢) الطبري ، سنة ٢٥٥

(٣) الطبري ، سنة ٢٧٢

(٤) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤٦٠

(٥) تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ٧٥

(٦) تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٣

ولا بد ان نلاحظ ان كسر السجون كان نتيجة الشغب والفتن ، وعصيان الجند وغلاء الاسعار واضطراب العامة . وهذه امور كانت مما خص بها العصر العباسي الثاني . وقد كان للأتراك الشأن الكبير فيها ، ولن نورد كل ما ذكره المؤرخون في هذا الباب فحسبنا ما ذكرنا .

موت الخليفة وعزل الوزير : وكانوا يطلقون السجناء لموت الخليفة او عزل الوزير . حدث التنوخي عن احمد بن احمد بن المدبر قال : « لما سجت مع احمد بن اسرائيل ، وسليمان بن وهب معا ، قال لي سليمان ذات يوم : رأيت البارحة في نومي كأن قائلًا يقول لي : يموت الواصل الى ثلاثين ليلة . فلما كان يوم الثلاثاء ، وكان الليل ، لم نشعر بالباب الا وقد دق دقا شديدا ، وصاح بنا صائح : البشري ، قد مات الواصل فاخرجوا . » (١)

وربما اطلق الخليفة الجديد المسجونين زمن الخليفة السابق كما فعل المهدي ، فقد امر باطلاق من كان في سجن المنصور ، الا من كان قبله تباعة من دم او قتل او معروفا بالسعي في الارض بالفساد . فأطلقوا من في المطبق . (٢)

واطلق المقتدر عند توليه اهل الجوس الذين يجوز اطلاقهم ، وامر محمد بن يوسف القاضي ان ينظر في ذلك . (٣)

(١) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ١٤٩ ،

(٢) الطبري ، سنة ١٥٩ ،

(٣) المنتظم ، ج ٦ ، ١٩ ،

وذكر ابن الجوزي ان الراضي لما ولي الخلافة امر باطلاق
من كان في حبس القاهر فأطلقوا جميعا . (١)

وربما يطلقون لعزل الوزير او موته . حدث محمد بن
الحسن الكاتب صاحب الجيش قال : قبض محمد بن القاسم
بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ، في وزارته للقاهر ، على ابي
وعلي معا . فحبسنا في حجرة من دار ضيقة ، واجلسنا على
التراب ، وشدد علينا . فقال لنا الموكلون بنا ذات يوم : قد
عزم الوزير على قتلكما الليلة . . . فتغير حالي ، وقام ابي
يدعو الله ويصلي ، فلما مضى ربع الليل سمعت الباب يدق ،
فذهب عني امري ، ولم اشك انه القتل . وفتحت الابواب
فدخل قوم بشموع ، فقامت فاذا فيهم سابور خادم القاهر .
فقال : انصرفا الى منزلكما . واذا بالقاهر قد قبض على الوزير
محمد بن القاسم وعزله . (٢)

العفو : وقد يطلق المسجونون بعفو من الخليفة ، او بحيلة
يحتالون بها بشفاعة شخص من الاشخاص .

وقد تشفع سجين الى طاهر بن الحسين ، بأمرأة اسمها
ديدا ، كان يحبها ، فأطلقه . (٣)

(١) المنتظم ، ج ٦ ، ٢٦٦

(٢) الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ٥٢ - ٥٣

(٣) تاريخ بغداد ، ص ١١٨

تقليد الخلفاء والوزراء بالملابس والازياء

يقول الدكتور « لالو » في كتابه « الفن والحياة الاجتماعية » ان العامة مطبوعة على تقليد من هو ارفع منها مكانة ، واعلى شأنًا . لاسيما تقليدها في ملابسها وازيائها ، وفي كل جديد يصدر عنها ، ليصدق قانون التقليد الذي نوه به « تارد » من وجود مخترعين يضعون الازياء ، ومقلدين يتبعون ما وضعوه . فواضعو الازياء هم ، على الاغلب ، المترفون الارستوقراطيون من الملوك ، والامراء ، والوزراء ، والاعنياء . هؤلاء يفتنون باختراع زي (مودة) من الازياء ، فاذا رآته الطبقة المتوسطة او العامة ، حلي ذلك في اعينهم ، واحبوا تقليده . وتمر برهة يعم الزي فيها بين الطبقات كافة ، وعندئذ تخرع الطبقة المترفة زيا جديدا يميزها من غيرها ، وما يزال هذا التبديل في الازياء مستمرا ، مادامت الطبقات الاجتماعية باقية .

ويقلب حب التقليد عند النساء ، على الرجال . فلن تجد آخذ لعقولهن ، ولا اجذب لاسماعهن ، من منظر ازياء المترفات والتحدث عليها . ولعل هذا التقليد طبع يخالط اللحم والدم .

واقصد صادفت منهن من تجوع لتلبس لبسة فلانة او فلانة من
الترفات ، وتستدين لتحلى حلية بنت الكبير او خليلة الوزير .
وتجد في ذلك التقليد ، من اللذة والزهو ، ما ينسيها الم
الجوع ، وعار الدين .



ولست احب ان استفيض في الأدلة ، الا ان هذه الظاهرة
تبدو واضحة جلية في العصر العباسي ، ونستطيع ان نأتي
بأمثلة منها .

فقد ذكروا ان يعقوب بن داود ، وزير المهدي ، كان له
طراز خاص من الطيلسانات والقلائس ، قلده الناس فيها .
وانتشر هذا الطراز . فلما غضب عليه المهدي ، نادى في
اصحابه : لا يوجد احد عليه طيلسان يعقوبي ، وقلنسوة يعقوبية
الا اخذت ثيابه ، لان ذلك طراز الوزير في اللباس .

وذكر ابو الفرج الاصبهاني ان علية بنت المهدي ، كان في
جبينها فضل سعة تسمع به . وكانت علية اديبة ، ظريفة
شاعرة . فاخترعت ، وهي الاميرة ، العصائب وجعلتها على
جبينها ، ورصعتها بالجواهر والدر ، فقلدت النساء جميعا عصابة
الاميرة ، وانتشرت العصائب انتشارا كبيرا ، وتفنن النساء
بعدها بتزييقها وزرقتها ، فلم ير فيما ابتدعت النساء اجمل
ولا احلى مما ابتدعت علية .

وهذا يذكرنا بالمركيزة د بومبادور . فقد كانت تلبس
الزري فيتبعها نساء البلاط ، ثم سائر نساء الناس .

وكان جعفر بن يحيى ، على قول الجهشاري ، طويل العنق .
وكان اول من عرض الجربانات وحشاها بالقطن . فاستملحها
الناس ، ولبسوها مثله ونسبوها اليه ، فكانوا يقولون : انه
يلبس جربانا برمكيا .

ولما افضت الخلافة الى الامين قدم الخدم وآثرهم ، فلما
رات ام جعفر شدة شففه بالخدم ، واشتغاله بهم ، اتخذت
الجواري المقدودات الحسان الوجوه ، وعمت رؤوسهن ،
والبستهن الاقبية والمناطق ، فماست قدودهن ، وبسرت
أردافهن ، وبعثت اليه بهن ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن
واجتذبن قلبه اليهن ، وابرزن للناس من الخواص والعوام .
قال المسعودي : فاتخذ الناس مثله الجواري المطمومات
والبسوهن الاقبية والمناطق ، وسموهن الغلاميات .

ويحدثنا الشابستي ، صاحب الديارات ، ان عربيا ، المغنية
المشهورة ، ووصيفة الامين ، رؤيت وهي في سن سبع عشرة
سنة ، تلبس القباء والمنطقة وتقوم على رأس الامين .

وزبيدة كانت اول من رصع الخفاف بالجوهر ، ولبست
التياب الموشاة المنسوجة بالذهب ، فقلدتها النساء في ذلك
أيما تقليد .

وكان المنصور قد احدث لبس القلائس الطوال وفرضها

على الناس ، فهزا ابو دلامة من هذه القلانس التي تشبه الدنان ، فأبطلت . فلما جاء المعتصم ، وكان ميالا للتشبه بالأعاجم في ملابسه اعاد لبس هذه القلانس الطوال تشبها بملوك الاعاجم ، فلبسها الناس تشبها بفعله وسميت « المعتصميات » .

فلما جاء المتوكل اظهر لبس ثياب اللحم ، والمحم ثوب مسدود لافتحه له ، وفضل ذلك على سائر الثياب ، واتبعه من في داره على لبس ذلك ، ثم انتشر هذا الطراز من اللباس ، وشمل الناس لبسه وسميت الثياب المتوكلية .

ويظهر ان المستعين لم يرض عن القلانس الطوال . فلما جاء صفرها . فانتشرت القلانس الصغار بين الناس تشبها وتقليدا ، وأحدث الكمام الواسعة ، فجعل عرضها نحو ثلاثة اشبار ، فسار الناس على لبسها .



فأنت ترى شغف الناس بتقليد ازياء خلفائهم أيام بني العباس ، وما كان يومئذ ، تجده في كل وقت ، وعصر ، ومكان . ولقد رايت ، ماعلل به التقليد « تارد » ، وما ذهب اليه « لالو » ، ولابن الطقطقي ، صاحب الفخري في الآداب السلطانية ، راي يقارب راي لالو ، فقد قال : « والحق ان الناس يتبعون ملوكهم في زيهم ، ويقلدونهم في لباسهم ورسومهم وآدابهم ، لان انفسهم مطبوعة على تقليد من هو ارفع منهم » . ثم يضيف الى ذلك فكرة جديدة فيقول : « ولانهم علموا ان زيهم الاول مستهجن في نظر الخلفاء ، فتقربوا اليهم بزيهم ... »

عشق القيان

كان للقيان في العصر العباسي الشأن العظيم والمنزلة العليا . ولم تشغل الحرائر ما شغلته القيان في الادب والتاريخ والاجتماع . ولم يكن لهن ماكان لأولاء من اثر في تهذيب النفوس وصقل الطباع وانتشار المجازات ، الا من اوتيت منهن الامارة والجاه والسلطان ، شبيهاً علياً وزبيدة والعباسة .

وقد خلا ادبنا العباسي من صور المخدرات ، ولكنه رف بكثير من صور هؤلاء الجاريات . ففيه عنهن اشياء حسان ، واحاديث ظراف ، واوصاف بارعات .

ولم تبلغ القيان هذه الرفعة وتلك المنزلة الا بعد الجهد والجهد والتعليم والتلقين ، والصقل والتهذيب . فكن يتخرجن على كبار المغنين اشباه الموصلي وابن المهدي ، ويحذقن العزف والضرب ، ويتفقهن في العربية ، ويحفظن نوادر الاحاديث وفرائد اللغة وامالي المجالس وشوارد الاشعار ، ثم يبرعن في اظهار الاناثه والدل ، حتى تصبح القينة مصدر غواية وفتون ،

ومثار دعاية ومجون ، وبهجة الارواح ومنية النفوس . فلا
غرو ان اقبل عليهن الشبان والشيخان ، ولا عجب ان هن اتقن
فن العشق ، واصابت سهامهن قلوب الابعاد والاحباب .

وقد الفت عنهن رسائل كثيرة منها « رسالة القيان »
للجاحظ ، وكتاب « القينات » لاسحق بن ابراهيم الموصلي
وكتاب « القينات للمدائني » ، وكتاب « القينات » ليونس بن
سليمان المغني ، وغيرها . (١)

على انه لم يصل الينا من هذه الرسائل كلها غير رسالة
الجاحظ التي ذكر فيها الكثير من احوال القيان وطبائعهن
ومبولهن واخلاقهن وطرقهن في الاغواء . وقد خصهن ابو
الطيب الوشاء في كتابه « الموشى » بفصل ممتع عن
عشقهن وغرامهن . زاد فيه على ما ذكره الجاحظ ، وافاد .

وقد لاتجد في ادبنا العربي صفحة اكثر متوعا ، وابصر
وصفا واحلى سطوعا ، واشد دقة ، من وصف الجاحظ
والوشاء عن عشق القيان والحيل التي يتبعنها لاستمالة
الشبان ، والسبل التي يسلكنها لطردهم اذا نفدت دنائيرهم
وافلسوا . فلقد وفقا في وصفهما توفيقا بعيدا .

لاجرم ان الجاحظ كان اسبق الى وصف ذلك ، ولكنه اجمل

(١) انظر هذه التوايف في مقال لنا نشر في مجلة المجمع العلمي العربي
يدمشق بعنوان (مآلف عن النساء) الجزء الخامس من المجلد السادس
عشر ، ١٩٤١ .

وأوجز . أما الوشاء فلم يتعد مقاله الجاحظ الا قليلا ، ولكنه شرح وفصل .

والمهم في وصف هذا العشق ، ان الكاتبين ابانا عن عواطف كامنة ، وطرق مغرية ، وحيل واقعية ، حتى لتشعر ، وانت تقرا ، أنك اليوم بين يدي غانية من غواني الحانات ، اللواتي تخرجن في الفتنة والاغواء : يجدن بالقبلة الشهية ، والعضة الندية ، ليبتزرن الدراهم والاموال .

فقد قرروا ان القينة لاتكاد تخلص ، او تناصح في ودها . لانها مجبولة على نصب الحبالات والشراك للمتربطين ليقعوا في انشوطتها . (١) ذلك لان حبهن ، كلهن ، كذوب وعشقهن متبدل غير ثابت . فهو لطمع او غرض . ولذا كن يقصدن أهل النشب واليسار ، ويصدقن عن ذوي الافلاس والاقطار . (٢)

وكان من عادة القينة اذا رات في مجلس فتى له غنى ، ان تميل اليه لتخدعه . فتمنحه بادىء بدء نظرها ، وتغمزه بطرفها ، وتشير اليه بكفها ، وتداعبه بالتبسم ، وتغازله بأشعار الغناء ، فتغني على كاساته ، وتميل الى مرضاته . ثم تظهر الشوق الى طول مكثه ، والميل الى سرعة عوده ، حتى توقع المسكين في حبالتها وتعلق قلبه بحبها ، وتطمعه في قربها ، ثم

(١) رسالة القيان ، ص ٧٠

(٢) الموشى (ليدن) ج ٢ ، ٩٢

تحزن لرواحه وتبكي لفراقه ، وتكاتبه تشكو اليه هواها ،
وتقسم له انه ضميرها في ليلها ونهارها ، وانها لا تريد سواه ،
ولا تؤثر احدا على هواه ، ولا تنوي انحرافا عنه . ثم تعزز ذلك
بالرسل ، وتخبره عن سهرها وتنبيه عن فكرها ، وتشكو اليه
القلق ، وتخبره بالارق ، وتبعث اليه بخاتمها ، وفضلة من
شعرها ، وقلامة من ظفرها ، ولبان قد جعلته عوضا عن
قبلتها ، وكتاب قد نمقته بظرفها ، وتقطت عليه قطرات من
دمعها ، وضمنته الشوق والشكوى ، وسألته المواتاة على
حبها . وربما منحته من ريحانها ، وأهدت اليه في النيروز
سكرا ، وفي المهرجان خاتما ، وأخبرته انها لا تمل الدموع اذا
غاب ، ولا ذكرته الا تنغصت ، ولا هتفت باسمه الا ارتاعت . .
حتى اذا رأت انها حوت عقله ، وصارت شغله ، وأستمالت ليه ،
وسلبت قلبه ، وعلمت انه غريق في بحر حبها ، أخذت في طلب
الهدايا ، فتشفت الثياب والاردية والعمائم والخفاف والعصائب
المرصعة ، وخواتيم الياقوت ، ثم تمارضت من غير سقم ،
وتعالجت من غير حاجة منها الى الدواء ، لتجيئها هدايا
ذوي الوجد من القمص المعنبرة ، والفلائل المسكة ، والاردية
المرشوشة ، ومخانق الكافور ، والمسك الاذفر ، والعنبر
الاشهب ، والعود الهندي ، والماورد الجوري ، والفراريج ،
والجداء الرضع ، والدجاج الفائق ، والفراخ المسمنة ،
والرياحين والفاكهة ، يتبعها صنوف من الشراب : من العسل
والمطبوخ والمشمش ، تلحقها الدنانير والدراهم . فلا تزال في

هدايا متواترة ، والطاق متتابعة ، حتى اذا نفذ اليسار وذهب
الاكثار واتلف المال ، واحست بالافلاس عمدت الى
طرق اخرى .

لقد بلغت ماكانت تمنى منه من مال وهدايا . ونالست
ماكانت تشهى من ثياب ، وشراب ، وعبور ، وماكل وفاكهة،
فلتصرفه عنها ، ولتبحث عن عاشق غر جديد .

تعمد عندئذ الى اظهار الملل من محبتها القديم . فتبرم
بكلامه ، وتضجر بسلامه ، وتتفقد منه الزلل ، وتتبع عليه
سقطاته ، ثم تأخذ فى الجفاء والعتاب ، ثم تصرف عنها هواه ،
وتميل الى سواه ، ثم تهجره ، فحينئذ يدرك المفرور الندم
والاسف ، فلا ينفعه ندم ولا اسف .

لقد كان المال ، هدف القيان . وكن يحتمل القبح والشيب
مع اليسار . ويكرهنهما مع الفقر . وهذا شأن الحسان كلهن .
« فليس للفقر مع الحب عمل » .

وربما اجتمع عند القينة من مربوطيها ثلاثة او اربعة ، وعندئذ
يتحامون الاجتماع ، ويتغايمون عند الالتقاء . فتبكي لواحد
بعين ، وتضحك للآخر بالآخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطي
واحدا سرها والآخر علانيتها ، وتوهم انها له دون الآخر ،

وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة تذكر لكل واحد منهم تبرمها وحرصها على الخلوة به دونهم جميعاً (١).



وبعد ، فما رأيت أبرع ولا احسن ولا ارق ولا املح ، ولا انفذ في العواطف من هذا الوصف . حتى لتحسب انك امام عالم نفسي مجرب ، لا يدع غمزة ولا اشارة ولا حيلة الا أحصاها . وليت شعري اكان الجاحظ والوشاء عاشقين لقياً : عشق القيان الجهد والعناء ، فثأراً منهم بهذا الوصف الخالد . وكأنني بالجاحظ ، « وهو الذي عابوه بملك القيان » قد تيمه هواهن ، وأذبل قلبه جبهن . او انه رأى عن قرب ماكن يصنعن . فقال : « ولو لم يكن لابليس شرك يقتل به ، ولا علم يدعو اليه ، ولا فتنة يستهوي بها الا القيان ، لكفاه . » ثم يستدرك فيقول : « وليس هذا بدم لهن ، ولكنه من فرط المدح . وليس يحسن هاروت وماروت ، وعصا موسى ، وسحرة فرعون ، الا دون ما يحسن . »

على ان الجاحظ يتخذ لفتنة القيان أعداءاً . يقول : « وكيف تسلم القينة من الفتنة ، او يمكنها ان تكون عفيفة ، وانما تكتسب الاهواء ، وتتعلم اللسان والاخلاق بالمنشأ . وهي تنشأ من

(١) رسالة القيان ، ص ٧١ - ٧٢ - والموشى ، ج ٢ ، ٩١ - ٩٥

لذن مولدها الى اوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو
الحديث وصوف اللعب والاخايث ، وبين الخلعاء والمجان .
وتروي الحاذقة منهن اربعة آلاف صوت فصاعدا . يكون
الصوت فيما بين البيتين الى اربعة آيات ، اذا ضرب بعضه
ببعض يكون عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله الا عن
غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب في ثواب ، وانما بنيت
كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة .
ثم لاتنفاك من الدراسة لصناعتها منكبة عليها ، تأخذ من
المطرحين الذين طرحهم كله تجميش ، وانشادهم مرارود ،
وهي مضطرة الى ذلك في صناعتها ، لانها ان جفتها تفلتت ،
وان أهملتها نقصت ، وان لم تستفد منها وقفت . « (١)

تلك صفحة رائعة من ادبنا العربي ، وصورة بارعة من
الصور البارعة التي يعرضها علينا العصر العباسي ، وهي
صورة حية فيها قوة وصدق وجمال .

من مجالس اللهوفى العصر العباسى

١ ايصح ان نطلق على العصر العباسى اسم عصر اللهو ؟

قد يكون فى ذلك مبالغة ، لان ذلك العصر كان فيه من كل شىء ، وان كان الناس فيه قد اطلقوا لانفسهم حرية التمتع والتلذذ . عصر حر فى كل شىء .. شاعت فيه الحرىرة شيوعا كبيرا فلم يحرم منها انسان ولا جهلتها نفس . من المؤمن الى الزنديق ، ومن الفنى الى الفقير .

كانت قصور الخلفاء مراكز ممتازة من مراكز اللهو . فيها الفنا والترف ، وفيها الصباحة والجمال ، وفيها النماء والغلمان ، وفيها اطيب الشراب واهنا الماكل .. وبالجملة فيها كل مايساعد على اللهو ويدعو اليه .. فلا عجب اذا امتلأت الكتب بأخبار مجالس اللهو فى تلك القصور .

لن احدثك عن هذه المجالس المترفة ، ولكنى سأحدثك عن مجالس اخرى ترى فيها صورتين متناقضتين من الصور المتناقضة الوفيرة عند العباسيين ، سأحدثك عن لهو المجان والفساق ، وعن لهو القضاة ورجال الدين .

قدم لنا عصر العباسيين ظاهرة تكتل الشباب الذين يجمعهم وحدة المشرب والذوق والتفكير . كان هؤلاء يجمعهم نظام واحد في الحياة ، يعيشون كما يشاؤون ، ويلهون كما يحبون . ويحدثنا صاحب مطالع البدور عن فئة من هؤلاء كانوا ابناء نعمة فشرذوا عن اهلهم وقنع بعضهم ببعض ، اکتروا دارا مشرفة على الطريق ببغداد ، العمورة بالناس . وكان هؤلاء يفلسون احيانا ويوسرون احيانا على مقدار ما يملق الواحد من اهله ، او يوسر . فكانوا اذا ايسروا اكلوا وشربوا ودعوا الملهين والملهيات ، واذا افسوا قطعوا الوقت في النظر الى الناس رائحين غادين . (١)

مثل هؤلاء الفتية كثير . . وما شرذوا عن اهلهم الا ابتغاء التمتع بالحرية واللهو واللذة . . وليعيشوا على هواهم الذي ارتضوا .

من هؤلاء الفتية ، اناس من الخلاء والمجان . كانوا من اظرف الناس احسنهم شعرا واكثرهم نادرة واشدهم مجونا وخلاعة . كمطيع بن اياس ، ويحيى بن زياد ، وحماد عجرد ، وحماد الراوية ، وكانوا جميعا على منهج واحد في الخلاعة ، وكل متهم بالزندقة .

ذكر الشابشتي ان هؤلاء اجتمعوا ذات يوم يشربون ،

(١) مطالع البدور ، ج ١ ، ١٩٢ .

فأقاموا على ذلك أياما عندهم خمرهم ، وعندهم قينتهم .
فقال لهم يحيى بن زياد ، وهم سكارى : ويحكم ماصلينا منذ
ثلاثة أيام ، فقوموا بنا حتى نصلي !

فقالوا : « نعم » ، فقام مطيع فأذن واقام ، ثم قال للمغنية :
تقدمي فصلي بنا !

فتقدمت ، وكانت بلا سراويل ، وعليها غلالة رقيقة ، فلما
سجدت انكشف متاعها ، فوثب اليه مطيع فقبله ، ثم قال :

ولما بدا منها جاثما كراس حليق ولم تعتمد
سجدت عليه وقبلته كما يفعل العابد المجتهد

فقطعوا صلاتهم بالضحك ، ثم عادوا الى ماكانوا عليه . (١)

وذكر ايضا ان يحيى بن زياد كتب الى مطيع يوما : انا نشيط
للشرب ، فان كنت فارغا فصر الي ، وان كان عندك نبيذ
طيب وغناء جئتك . فجاءته الرقة وعنده حماد الراوية
وحكم الوادي و غلام امرد فأجابه :

نعم لنا نبيذ وعندنا حماد
وعندنا واديننا وهو لنا عماد
ولهونا لذيذ لم تلهه العباد
او تشتهي فسادا فعندنا فساد
او تشتهي غلاما فعندنا زياد

(١) الديارات ، ص ١٦٣

وخيرنا كثير والخير يستزاد
 فلما قرأ الرقعة ، صار اليهم ، فتمموا بقية يومهم . (١)
 وهكذا كانت مجالس هؤلاء ملأى باللذة والمتعة والغلمان
 والنساء ، والنوادير والشعر . . وكانوا يتآمرون فيما بينهم ،
 على غلام او على فتاة ، وتجري امور لاتصدر الا في جو من
 الحرية المتطرفة التي تشيعها الحضارة في المجتمعات والمدن .
 ولكن هؤلاء فتية من المجان لاحرج عليهم اذا جاهروا
 بالمعاصي ، ولدوا طعم الحرية في كل شيء . . فهل اتاك
 احاديث الكبار والقضاة ؟ . .

ذكر الثعالبي انه كان جماعة من الكبراء ينادمون الوزير
 المهلبى ويجمعون عنده في الاسبوع ليلتين على اطراح الحشمة
 والتبسط في القصف والخلاعة ، منهم ثلاثة قضاة هم ابن
 قريعة ، وابن معروف ، والتنوخي ، وما منهم الا ابيض اللحية
 طويلها . فاذا تكامل الانس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ
 الطرب منهم مأخذه ، وضع في يد كل منهم كأس ذهب وزنه
 الف مثقال مملوء شرابا قطربليا ، او عكبريا ، فيغمس لحيته
 فيه بل ينقعها فيه حتى تتشرب اكثره ، ويرش منه بعضهم
 على بعض ، ويرقصون اجمعهم وعليهم لباس الشراب مسن
 المصبغات . فاذا اصبحوا عادوا الى عاداتهم من التزمت والتوقر
 والتحفظ بأبهة القضاة ، وحشمة المشايخ الكبراء (٢)

(١) الديارات ، ص ١٦٣

(٢) الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ٢٠٤

لفيف من خلعاء العصر العباسي

امر الخلاعة في العصر العباسي امر فرغ منه . كان ذلك العصر ولا شك ، عصر خلاعة ومجون ، وقد تعدى ذلك الى الفسق والدعارة ، ولكن من هم الخلعاء الذين زينوا مجالس الخلاعة ، ومن هم ابطال الدعارة في هاتيك الايام ؟

سيمر بخاطرك اسماء قلائل ، مرت بك اثناء قراءاتك فعرفتها ، وستذكر مطيعا وحمادا وابا نواس ، ولكن هؤلاء لم يكونوا وحدهم الخلعاء الذين رغبوا في اللهو واللذائذ ، واعرضوا عما سوى ذلك . . بل كان هناك كثيرون مثلهم ، مئات ، والوف ، لم تحفظ الكتب القديمة التي بين ايدينا اخبارهم وحوادثهم . وسيرهم ، فجهلناهم . او ظلت سيرهم هذه دفينه في الكتب المخطوطة التي لم تنشر ، فلم يأتنا خبر عنهم .

ولكن نشر كتاب « الديارات » للشابشتي اتاح لنا الاطلاع على اسماء جديدة لبعض اولئك الذين اطلقوا لانفسهم العنان فعاشوا بحرية تامة ، لم يحفلوا بقيود الدين او المجتمع ، ونم يابهاوا بتقاليد الآباء والاجداد .

وكتاب « الديارات » هذا ، ذو شأن كبير ، في هذا الباب ، فهو من الكتب النواذر الحسان التي يجب الرجوع اليها في دراسة الحياة الاجتماعية في كثير من وجوها في ايام العباسيين ، وانك لتجد فيه من مظاهر المجتمع العباسي مالا تجده في كتاب آخر ، فهو يفضل عندي ، من بعض النواحي ، كتاب الاغانى وكتاب الفرج بعد الشدة ، وكلاهما مما يعتمد عليه في دراسة ذلك المجتمع المضطرب الغريب ، الفوار ، الحسي .

وسأعرض عليك اذن بعض اسماء الخلعاء التي يمدنا بها كتاب الديارات هذا لترى وجوها جديدة وانموذجات من الخلاعة طريفة .

فمن هؤلاء ابو الشبل البرجمي ، كان في ايام المأمون وادرك المتوكل ومدحه وعمر طويلا ، وكان من الطيباب ، وله شعر مليح . وكان منعكفا على الشرب لا يفارقه ، ولا يوجد الا سكرانا . وكان يتطرح في الديارات والحانات ومواطن اللهو لا يغيبها ولا يتأخر عنها .

وكان له صديق نخاس يبيع الرقيق اسمه محمود الوراق ، وكانا لا يفترقان وكانا يلهوان ويشربان معا . حدث ابو الشبل قال : صرت انا ومحمود الى قطربل فدعونا الخمار ، فقلنا : ايتنا بنت عشر قد انضجها الهجير !

فجاءنا بها ، فقلنا : اسقنا !

فسقانا ، فقلنا : اشرب واسقنا !

فقال : انا مسلم (وكان يهوديا قد اسلم) ، فقال لسي محمود : قوم يكون الخمار عندهم مسلما متحرجا ، وهم عند الخمار كفار ، اترى لله فيهم حاجة ؟

ومنهم الحسين بن الضحاك . وكان من الادباء والشعراء واهل الخلاعة والمجون ، ويعرف بالخليع . ونادم جماعة من خلفاء بني العباس منهم : الامين والمعتصم والواثق والمتوكل . وكان مستهترا بالخدم جدا لم يقصر عن ذلك حتى مات وله اشعار حلوة في الغلمان والشراب .

وكان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع شاعرا حسن الرواية حسن العلم ، وكان من الادباء الظرفاء ، صاحب غزل ومجون ، كثير التطرح في الديارات والحانات ، متبعا اهل اللهو والخلاعة . وكان له شعر يتغنى به . وهو القائل في غلام احبه :

اقتم بالدير حتى صار لي وطنا

من اجله ، ولبست المسح والصلبا

وصار شماسه لي صاحبا واخا

وصار قسيسه لي والدا وابا

وكانت دعوته :

فخذ من الدنيا ولذاتها

فأنا نحن بها عارية

واكثر شعره بغلمان الديارات .

ولم يكن ابو جفنة القرشي يخلو من غلمان مرد : بعضهم
يخدمه وبعضهم يغميه . وكان من الخلاء ومدمني الشرب ،
والتطرحين في الديارات والحازات ، وله في غلمان الديارات
اشعار حلوة .

وكان ابو العيناء من الطيِّاب ، وشعره في دير باشهرا حلو
عذب يقول :

نزلنا دير باشهرا على قسيه ، ظهرا
فأولى من جميل الفعل ما يستعبد الحرا
وسقانا ، وروانا من الصافية العذرا
ونلنا كل مانهوا ه من لذاتنا جهرا
فتكننا وتهتكنا ومثلي هتك السرا ..

واشتهر عمرو بن عبد الملك الوراق . وكان من الخلاء
المجان ، المنهمكين في البطالة والاستهتار بالرد والتطرح في
الديارات ، وله شعر كثير في المجون ووصف الخمر وهو القائل
عن نفسه :

ايها السائل عني لست من اهل الصلاح
انا انسان مريب اشتهي نيل الملاح
قد قسمت الدهر يومين : لفسق ولراح

ولازم ابو شاس الديارات ، واكثر من وصف الخمر ، وكان
مفتونا بالرهبان لايزال يلزمهم . وله شعر حلو .

وبالغ مصعب الكاتب في التهتك ، وكان من اشد الناس
خلاعة ومجوناً واستهتاراً بالمرء وتطرحاني الحانات والديارات .
واشعاره كلها في الغلمان . ومن شعره في غزلان دير الزعفران :

وغزلان مراتعها فؤادي شجاني منهم ماقد شجاني
رضيت بهم من الدنيا نصيباً غنيت بهم عن البيض الغواني
اقبل ذا والتم خد هذا وهذا مسعد سلس العنان

وكان يتخذ الصلاح وسيلة للتفرير بالغلمان والمرء ،
واشعاره في التحدث عن الغلمان نسيج وحدها .

وثمة شاعر اسمه اللبادي كان من طياب الناس وملاحهم ،
وذوي المجانة والخلاعة . وسمي اللبادي لانه كان يلبس ابداً
على ثيابه لبداً احمر ، وله شعر جيد في غلام كان بدير
احويشا .

وخلف يموت بن المزرع ، وهو ابن اخت الجاحظ ، غلاماً
اسمه المهلهل . وكان شاعراً مطبوعاً ، انهمك في الخلاعة
واللعب والتطرح في مواطن اللهو والطرب ، ولازم الحانات
والديارات .

واكثر منه في الانهماك الثرواني الكوفي كان متطرحاً في
الحانات ، مدمناً شراب الخمر ، مغرقاً في اتباع المرء لا يعرف
شيئاً غير ذلك ، ولا يوجد في شيء من امر الدنيا الا فيه . وكان
آخر امره ان وجد في حانة خمار بين زقي خمر وهو ميت .

الشعراء الفقراء في العصر العباسي

سيد هؤلاء الشعراء ، على ما اعلم ، هو ابو الشمقمق . فقد كان شخصية غريبة شاذة ، لا يخفل احدا . وكيف يحفل احداً وقد مر به اعرابي ذات يوم فأوقفه وقال له : خذ هذه الدراهم . واهجني . فأطرق الاعرابي هنيهة ثم قال : « والله ما رأيت احدا يشتري الهجو بالثمن غيرك » . وهجاه .

على ان الشيء الذي يثير شغفك عند هذا الشاعر ، هو وصفه الجوع والفقر وذل المسألة وصفا مؤلما . فهذه نعمة من نعمات الادب في العصر العباسي ، لم يعن احد بتصويرها ، كما صور البذخ والترف والغنى والمجون . وقد ابنت في كتابي « الظرفاء والشحاذون » ان هؤلاء الفقراء كانوا كشارا ، غير ان ما وصل الينا من شعرهم قليل . وانا هنا اميـز هؤلاء الفقراء حقا من الناس الذين اتخذوا الفقر مهنة وصناعة ، ثم اصبحوا من المكدين . والفرق بين هؤلاء واولئك كبير . فالفقراء حقا نجد في شعرهم لوعة الحرمان ، ونجد وصف الاولاد والبنات الجياع ، ونجد الوانا من الصور

الانسانية المؤلمة التي تثير شفقتك ، وقد تثير دمعتك . اما
الذين اتخذوا الفقر والكدية صناعة فما نجد لديهم غير الحيل
والتفنن بها ، هذه الحيل التي لا تستدر دمعتك ، بل تثير
دهشتك وعجبك .

وابو الشمقمق ، عندما يصف لك ما ذكرت ، يحاول ان
ياتي بكل غريب يظهر فقره ومسغبته . اسمعه يقول :

ان العيال تركتهم بالمصر خبزهم الغضارة
وشرايهم بول الحما ر مزاجه بول الحماره

فهؤلاء اهلوه ، لا يجد خبزا يأكلونه ، ولا شرايا يشربونه ،
فيميلون الى خبز الغضارة ، وشرب بول الحماره .

والناس يفخرون ان يأكلوا الوانبا من الطعام ، وضروبا من
الفاكهة ، كل يوم ، ويقصدون جعل مائدتهم غانية حافلة ،
قصدا . اما ابو الشمقمق فيفتخر بالخبز ، فاذا وجد معه
اللحم ، فهذا امان من الفقر .

ماجمع الناس لذيابهم انفع في البيت من الخبز
والخبز باللحم اذا نلته فانت في امن من الترز
وانظر اليه يصف اولاده واهله ، بنبرة لوعة وحزن :

وقد دنا الفطر وصبياننا ليسوا يذي تمر ولا ارز
وذاك ان الدهر عاداهم عداوة الشاهين للوز
كانت لهم عنز فاودى بها واجدبوا من لبن العنز

فلو راوا خبزا على شاهق لاسرعوا للخبز بالجمز

وثمة شاعر آخر ، عرف بالفقر ، هو ابو الينبغي . وكان شاعرا مطبوعا ، جيد البديهة ، خبيث اللسان . وكان قد هجا الفضل بن مروان فحبسه بعد ان اغرى به الواثق ، فبقى في السجن حتى مات ، فعاش فقيرا ، ثم مات سجيناً ، سألته ابو هفان وهو محبوس : ماكان من قصتك ؟ قال : انا ابو الينبغي ، قلت مالا ينبغي فحبست حيث ينبغي .

لعلك تجد في شعره نغمة جديدة ، نغمة فيها اظهار تباين الارزاق والحظوظ ، ولكنه مع ذلك لايشور ، بل يصبر على مضمض .

صبرا على الذل والصغار من خالق الليل والنهار
كم من حمار على جواد ومن جواد على حمار

وهذا البيت الثاني اوتى شهرة واسعة . قال ابن المعتز في طبقات الشعراء : وطار هذا البيت في الافاق ، ولهج به الناس فهو ينشد في كل مجلس ومحفل وسوق وطريق . واذا كان هذا شأن البيت ايام ابن المعتز ، فما أجدره ان يعاوده حظه اليوم ، وان ينشد في كل مجلس ومحفل وسوق وطريق ، بعد ان كثر الحمير الذي يركبون السيارات (خيول) اليوم .

وكان فقره يدفعه الى التعرض الى الوزراء والكبار فسي مواكبهم . ذكروا انه عرض يوما ليحيى بن خالد في موكبه .

والفضل وجعفر عن يمينه وشماله ، وفي الموكب وجوه الناس
فقال له رافعا صوته :

صحبت البرامك عشرا وعشرا فخبزي شراء وبيتي كرا
قال ابو هفان : فلما كان من الغد جئته فقلت : ويحك ! ماذا
صنعت بنفسك ولم تعرضت للبلاء ؟

فقال لي : اسكت يا عاجز ! والله ما امسيت امس حتى
وافتني من عند الفضل بدرة ، ومن عند جعفر اخرى ، وقد
اجرى لي كل واحد من مطبخه وظيفة .

ونستطيع ان نلحق بهذين ، شاعرا ثالثا هو الحمدوني .
وكان من املح الناس شعرا ، واقدروهم على الوصف . وقد
كان فقيرا ، وكان له طيلسان وهب له ، ثم حال لونه وتخرق ،
ولم يستطع ان ينال طيلسانا آخر . فكان عامة شعره في هذا
الطيلسان .

ياأبن حرب كسوتني طيلسانا مل من صحبة الزمان وصدا
فحسبنا نسيج العناكب لوقيس الى ضعف طيلسانك سدا
ان تنفست فيه نتشق شقا او تنحنحت فيه ينقد قدا
وما زال يرفو طيلسانه حتى اسود :

فيما كسانيه ابن حرب معتبر
فانظر اليه فانه احدى الكبر

قد كان ابيض ثم مازلنا به

نرفوه حتى اسود من صدا الابسر

وقد ذكروا ان له في طيلسانه هذا قريبا من مائتي بيت

تفنن في معانيها .

واخيرا نجد شاعرا رابعا ، لا بد من التنويه به ،

هو ابو فرعون الساسي . ولعل حظه من الفقر كان وافرا ،

بل كان اوفر ممن سبقه . وكان ابو فرعون من افصح الناس

واجودهم شعرا ، واكثرهم نادرة ، وله في الفقر آيات

بارعات . استمع اليه يصف بيته وما فيه :

ليس اغلاقي لبابي ان لي فيه ماخشى عليه السرقا

انما اغلقه كي لا يسرى سوء حالي من يجوب الطرقا

منزل اوطنه الفقر فلو دخل السارق فيه سرقا

لاتراني كاذبا في وصفه لو تراه قلت لي قد صدقا

اما وصفه اولاده الصغار الجياع ، وطوافه لجمع الطعام لهم

فمن عيون شعره . وقد اوردناها في كتابنا الظراف والشحاذين

في العصر العباسي ، وفيها يقول :

وصبية مثل فراخ الذر سود الوجوه كسواد القدر

جاء الشتاء وهم بشرر بغير قمص وبغير ازر

حتى اذا لاح عمود الفجر وجاءني الصبح غدوت اسري

وبعضهم ملتصق بصدري وبعضهم منحجر بحجري

اسبقهم الى اصول الجدر هذا جميع قصتي وامري

فارحم عيالي وتول امري أنا ابو الفقر ، وام الفقر

ايات رائعة فيها تصوير صادق واقعي لحالته وحالة اولاده .
هؤلاء الفراح ، السود الوجوه ، العراة ، بغير قمص وبغير
أزر . . الذين يلتصقون بصدرة وينحجرون بحجره . . من
اجل هؤلاء الصبية يطلب الرحمة ويسمى نفسه ابا الفقر
وام الفقر .

وهذه الشكوى في اغلب شعره ، فهو دائما يشكو الفقر
والجوع ، وان عياله لا يأكلون . هذه قصيدة يخاطب فيها
الخليفة ويقول :

اليك اشكو صبية وامهم لايشبعون وابوهم مثلهم
قد اكلوا اللحم ولم يشبعهم وشربوا الماء فطال شربهم
وامتدقوا المدق فما اغناهم والمضغ ان نالوه فهو عرسهم
لا يعرفون الخبز الا باسمه والتمره هيئات فليس عندهم
وما راوا فاكهة في سوقها وما راوا هاهي تنحونحوم
وجحشهم اجرب منقور القرى ومثل اعواد الشكاعي كلبهم
ادعو لهم يارب سلم امهم

فهذه ايات فيها طرافة وحياء ، لانها تصف ما في هذه
الحياة . وموضوع الشعراء الفقراء واسع ذو نواح مختلفات ،
وانما هذه صور لهذه الشعراء جديرة بأن توسع وتفصل .

فهرس الكتاب

ص	تمهيد
٢	
٥	١ - حكومة انساء لدى الخلفاء
١٧	٢ - القرية الفضية
٢٣	٣ - اعراس الخلفاء وولائمهم
٣٦	٤ - الورد في حياة الخلفاء
٤٥	٥ - الكيمان في حياة الخلفاء
٥٠	٦ - جواهر الخلفاء العباسيين
٦٢	٧ - الخلفاء العباسيون والهدايا
٧٤	٨ - مآكل الخلفاء العباسيين
٨٦	٩ - الخلفاء العباسيون والتجسس
١٠٠	١٠ - ملاهي الخلفاء
١١٧	١١ - سجون بغداد
١٥٠	١٢ - تقليد الخلفاء والوزراء
١٥٤	١٣ - عشق النقيان
١٦١	١٤ - من مجالس اللهو
١٦٥	١٥ - ليف من خلفاء العصر العباسي
١٧٠	١٦ - الشمراء الفقراء